الفصل الثالث

قضايا معاصرة فى ضوء تعاليم الإسلام

- الحضارة الإسلامية فى مواجهة التحديات المعاصرة
- الأمن المجتمعى فى الإسلام
- الحفاظ على حرمة أماكن العبادة
- التجربة المصرية فى تجديد الخطاب الدينى
- الشباب وبناء المستقبل
- التواصل الإنسانى
- التواصل المعرفى بين التراث والمعاصرة
- ظاهرة الزواج العرفى

الحضارة الإسلامية فى مواجهة التحديات المعاصرة

تمهيد :

إن التحديات التى تواجه الأمة الإسلامية فى العصر الحاضر تحديات كثيرة ومتنوعة وغير مسبوقة ، وذلك بالنظر إلى ما طرأ على كل المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية والأخلاقية والاجتماعية وغيرها . . وذلك فضلاً عن الثورة العلمية والتكنولوجية وثورة المعلومات والاتصالات وتيار العولمة الجارف الذى يجتاح العالم المعاصر .

ومما يزيد الأمور تعقيدًا أمام عالمنا الإسلامى فى ظل هذه الظروف والمتغيرات ما يعانيه من أزمات طاحنة ومشكلات خانقة متعددة الجوانب . ففى الوقت الذى تتلاحق فيه التطورات على جميع المستويات فى مناطق العالم المتقدم إذا بنا نرى التخلف بكل أبعاده يخيم على العالم الإسلامى . وهذا التخلف واقع لا يجوز إنكاره على الرغم من القشرة الحضارية الظاهرية المستوردة التى يراها المرء فى أنحاء شتى من العالم الإسلامى .

ولكننا فى الوقت نفسه لا نستطيع أن ننكر أن هذا التخلف الواضح ، وهذا الواقع المحزن ، منفصل عن النموذج الإسلامى الحضارى بمائة وثمانين درجة .

ولم تستطع الصحوة الإسلامية المعاصرة أن تقترب حتى اليوم بطريقة جدية من هذه القضية المصيرية الأولى . بل ظلت حتى يومنا هذا منشغلة بمحيط الدائرة ، وببعض المظاهر الشكلية والأمور الهامشية ، ومهتمة بالجزئيات دون الكليات ، واختلط لديها سلم الأولويات .فانقلبت الضروريات هامشيات والهامشيات ضروريات ، وغابت معالم الرؤية الواضحة المتعقلة المستنيرة ، وضاعت أصوات

العقلاء من رواد هذه الأمة وسط ضجيج الانفعالات العاطفية التى تتصف فى كثير من الأحيان بشدة حدتها وانفلات وعيها بما يدور حولها فى عالم اليوم .وواقع التخلف المشار إليه يمثل بالنسبة لعالمنا الإسلامى مشكلة حضارية بالدرجة الأولى . ويمكن القول بأن هذه المشكلة قد بدأت فى الظهور عندما بدأ التراجع الحضارى فى الأمة الإسلامية فى أعقاب زوال الوجود الإسلامى فى الأندلس أوائل العقد الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى . ولم تتعاف الأمة من هذا التراجع الحضارى حتى الآن .

مظاهر التخلف :

وهذا التخلف الحضارى الراهن والذى لا تخطئه العين فى عالمنا الإسلامى ، يتجلى فى العديد من المظاهر التى تشمل جميع المستويات الدينية والعلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها . وفى مقدمة هذه المظاهر - فى رأينا - إهمال العلم والحضارة ، حيث لم يعد العلم ولا التقدم الحضارى يشكل أولوية فى قاموس الأمة الإسلامية .والأمثلة على ذلك كثيرة ومتنوعة ، ولكن يكفينا أن نشير فى هذا الصدد إلى أن نسبة الأمية فى العالم الإسلامى تزيد على ٤٦ ٪ طبقًا للبيانات الصادرة عن المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة .

ومن الطبيعى أن تجر الأمية وراءها انتشار الخرافات والأوهام وتغييب العقل واختزال الإسلام فى مجرد أداء الشعائر المعروفة ، والاهتمام المفرط بالشكليات بعيدًا عن جوهر الدين ومقاصده . وقد كانت نتيجة ذلك كله انتشار ظواهر التشدد والتطرف والغلو فى الدين . وترتب على هذا التشدد فى أمور الدين تحول سلبى فى السلوك حيث حلت الفظاظة والغلظة والعنف فى التعامل محل الرحمة التى هى السمة الأساسية للإسلام ، وانتشرت تهم الكفر والتحلل من الدين ضد كل من يُعتقد - صوابًا أو خطأً - أنهم متساهلون فى أمور الدين ، أو من لهم وجهة نظر مخالفة لهؤلاء المتشددين . وغنى عن البيان أن نشير إلى أن هذا التيار المتشدد كان وراء ظهور موجات الغلو والتطرف والتعصب والإرهاب التى جلبت على الأمة الإسلامية عواقب وخيمة لا تزال تعانى منها حتى اليوم .

وقد كان لذلك كله أثر سلبى على العلاقات بين شعوب الأمة الإسلامية على جميع المستويات وبصفة خاصة على المستويين السياسى والاقتصادى . فقد أصبح التشرذم هو السمة الغالبة على علاقات الأمة الإسلامية فيما بينها ، وأصبح التضامن الإسلامى مجرد شعار نردده فى المناسبات ، ولكنه شعار يخلو من أى مضمون . ويكفى أن نشير إلى أن حجم التجارة البينية بين دول العالم الإسلامى لا يتجاوز نسبة ٨ ٪ من حجم تجارة هذه الدول مع بقية دول العالم . والتعاون فى بقية المجالات الأخرى ليس أسعد حظًا من ذلك .

ومن هنا فإنه ليس بالأمر المستغرب أن نرى العالم الإسلامى - الذى يشكل سكانه خُمس سكان العالم - قد أصبح مسرحًا مباحًا للصراعات المحلية والعالمية ومطمعًا للقوى الكبرى ، وأصبح المسلمون فى عالم اليوم أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام . فمعظم مشكلات العالم اليوم تجد لها مرتعًا خصبًا فى قلب العالم الإسلامى ، ومن أهمها قضايا فلسطين والعراق وأفغانستان والصومال والسودان وتشاد ولبنان وباكستان وغيرها . وذلك بالإضافة إلى مشكلات أخرى بين بعض البلاد الإسلامية ذاتها فى مناطق مختلفة من العالم ، ناهيك عن العديد من مشكلات الأقليات الإسلامية فى مختلف القارات . وأصبح الآخرون يتحكمون فى مصائر الأمة الإسلامية ، ويقررون وحدهم فى غيبة المسلمين أو حتى فى حضورهم ما يشاءون فى أخص خصوصيات هذه الأمة ، الأمر الذى ينطبق عليه قول جرير :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأمرون وهم شهود

وفى خضم هذه الأوضاع التى يعيشها عالمنا الإسلامى نجد هناك اتجاهًا قويًا لتعليق كل أخطائنا وعيوبنا وتخلفنا على شماعة الآخرين دون أن نلتفت لنقد أنفسنا والتعرف بطريقة موضوعية على مواطن الخلل لدينا . وغيات النقد الذاتى من شأنه أن يساعد على تغييب وعينا بسوء أوضاع عالمنا الإسلامى .

العالم الإسلامى والآخر :

ولا شك فى أن هذه الأوضاع الداخلية كان لها أثرها السلبى على صورة الإسلام والمسلمين فى الخارج ، وبخاصة فى عالمنا المعاصر . فنحن لا نعيش وحدنا فى هذا العالم ، ولا نستطيع أن نعزل أنفسنا عما يدور حولنا فى عالم اليوم من متغيرات، وتيار العولمة المعاصر يحمل إلينا الكثير من التحديات التى لا مفر أمامنا من مواجهتها .

فالعولمة السياسية تتحدى أمتنا بما تحمله من شعارات الديمقراطية وحقوق الإنسان والتعددية السياسية ، والعولمة الاقتصادية تتحدى أمتنا بما تحمله من إزالة الحواجز أمام تدفقات التجارة والسلع والخدمات والمال والبرامج ، وبما تحمله أيضًا من تكتلات اقتصادية كبرى وشركات عملاقة متعددة الجنسيات ومؤسسات مالية ودولية . وهذا كله جعل البعض فى الشرق وفى الغرب يصف هذه العولمة الاقتصادية بأنها عولمة متوحشة تجعل الغنى يزداد غنى والفقير يزداد فقرًا .

أما العولمة الثقافية فإنها تتحدى الأمة بفرض ثقافتها وقيمها وعاداتها الاجتماعية ، الأمر الذى يهدد ثقافتنا بالذوبان فى ثقافة الأقوى ويطمس بالتالى هويتنا الإسلامية وشخصيتنا الحضارية .

وهذا كله يعنى أن أمتنا قد أصبحت محاصرة من كل جانب، وقد تداعت عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها- كما ورد فى الحديث الشريف[1]- لا بسبب قلة أعداد المسلمين ، بل بسبب كثرتهم العددية الضعيفة التى وصفها النبى عليه الصلاة والسلام فى الحديث المشار إليه بغثاء السيل . وقد شجعت هذه الأوضاع الآخرين للترويج لما يسمى بالفوضى الخلاقة فى عالمنا الإسلامى ، وهذه الفوضى الخلاقة

(١) رواه أحمد فى مسنده .

المزعومة ليست إلا دعوة لإثارة الفتن والعصبيات والانقسامات فى أوساط المسلمين.

سبيل الخلاص :

وإذا كنا قد حاولنا أن نشخص على سبيل الإجمال - من وجهة نظرنا - أهم أدواء الأمة الإسلامية فى عالمنا المعاصر والتحديات الداخلية والخارجية التى تتعرض لها ، فإن السؤال الذى يفرض نفسه فى هذا المقام هو : ما السبيل إلى إنقاذ الأمة من هذه الأزمة الخانقة ؟

يقول خصوم الإسلام : إن هذا الدين هو سبب تخلف المسلمين . ومادام المسلمون متمسكين بهذا الدين فلن تقوم لهم قائمة . ويقدم هؤلاء النصح للمسلمين بأن يفصلوا فصلاً تامًا بين الدين والحياة ، ويبعدوا الدين تمامًا عن التدخل فى أمور الدنيا ، ويتبعوا فى هذا الصدد النموذج الغربى فى تهميش الدين ، هذا النموذج الذى أخذ بيد الغرب إلى الأمام ، وجعله اليوم فى مقدمة دول العالم حضارة ورقيًا . وقد يكون الأخذ بالنموذج الغربى حتميًا فى حالة ما إذا لم يكن لدى المسلمين خيارات أخرى تستند إلى ما لديهم من تراث دينى وحضارى عريق .

وفى هذا المقام نود أن نؤكد أن الموقف الإسلامى من الحضارات الأخرى موقف واضح لا لبس فيه . فالإسلام لا يمنع أتباعه من الاستفادة من تجارب الآخرين وعلومهم وخبراتهم . وإذا كانت الحضارة الحديثة قد قامت على العلم . فإن العلم فى الإسلام - كما هو معروف - يعد فريضة على كل مسلم ومسلمة - كما جاء فى الحديث النبوى الشريف[1] - كما أن الحضارة فى الإسلام تأخذ أيضًا حكم العلم فتكون هى أيضًا فريضة ، لأن الطلب الإلهى بإعمار الأرض فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[2] لا يتحقق إلا بالعلم . ومن هنا

(١) رواه ابن ماجه فى سننه .

(٢) سورة هود : ٦١ .

وجدنا أن الآيات الأولى من الوحى الإلهى على محمد ﷺ كانت منصبة على مفاتيح الحضارة .

وقد فتح القرآن الكريم باب البحث العلمى على مصراعيه أمام كل الناس ، ولم يضع حدودًا ولا سدودًا فى هذا الصدد . ويؤكد القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] .

وهذا يعنى أن السموات والأرض وما بينهما مجال للبحث والدراسة . وختام الآية المشار إليها فى غاية الأهمية لأنه يشير إلى أن أبواب البحث العلمى لن تفتح إلا « لقوم يتفكرون »، أى لهؤلاء الذين يستخدمون عقولهم ويجندون إمكاناتهم الفكرية للبحث والدراسة بصرف النظر عن معتقداتهم وأجناسهم ولغاتهم . ومن المعلوم أن التفكير يعد من القيم الحضارية الإسلامية التى أكد عليها القرآن الكريم فى كثير من آياته لأنه الوظيفة الأساسية للعقل الإنسانى الذى يعد أعظم نعمة أنعم الله بها على الإنسان . ومن هنا لم يكن من قبيل المبالغة ما ذهب إليه المرحوم الأستاذ عباس العقاد من وصف التفكير بأنه فريضة إسلامية .

ولا شك فى أن مبدأ الاجتهاد فى الإسلام يرتبط أشد الارتباط بالتفكير لأنه يعنى أعمال العقل فى فهم المسائل والبحث عن حلول ملائمة لها على المستويين الدينى والدنيوى . وقد كان الاجتهاد هو الآلية التى أقرها الإسلام للتجديد المتواصل فى الحياة على جميع المستويات .

التفاعل الحضارى :

وقد كان لهذه المبادئ والتعاليم الإسلامية أثرها العميق فى الانفتاح الحضارى للمسلمين ، كما كانت حافزًا لهم على التواصل مع الحضارات الأخرى . فالحكمة

(١) سورة الجاثية : ١٣ .

ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها - كما ورد فى الحديث الشريف[1] - . وطلب العلم لا يقتصر على زمان أو مكان محددين . فنحن مأمورون أن نطلب العلم حتى ولو كان فى أقصى مكان فى الدنيا - كما جاء فى الأثر الإسلامى المعروف : - « **اطلبوا العلم ولو فى الصين** » ، أو حتى لو كان هذا العلم فى يد من لا يدينون بديننا .

وقد جعل الفيلسوف العظيم ابن رشد من الاطلاع على ما لدى الآخرين واجبًا شرعيًا ، ولكنه أوصانا أن تكون لنا فى ذلك نظرة نقدية تميز بين النافع والضار . وفى ذلك يقول : «ننظر فى الذى قالوه من ذلك وما أثبتوه فى كتبهم . فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم ».

وقد كان ذلك هو النهج الذى سارت عليه الحضارة الإسلامية ، فقد تفاعلت مع الحضارات السابقة عليها وأفادت منها دون حرج وذلك من منطلق أن التراث الإنسانى - الذى هو ملك للإنسانية كلها - يعتمد على الأخذ والعطاء ، وأنه لا توجد أمة عريقة فى التاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من هذا التراث .

وإذا كنا قد سبق أن أكدنا أن مشكلة المسلمين الأولى هى مشكلة حضارية فى المقام الأول فإن التغلب عليها يجب أن يكون فى مقدمة أولويات أمتنا الإسلامية ، فليس هناك أمامها خيار إلا خيار العلم والبناء الحضارى . ويمكن القول بأن البناء الحضارى الذى يعنى التقدم على المستويين المادى والروحى قد أصبح اليوم بالنسبة للمسلمين فرض عين على كل مسلم ومسلمة كما هو الحال بالنسبة للعلم . وهذا أمر لم يعد ترفًا ، وإنما هو قضية مصير . وعلى المسلمين أن يدركوا ذلك جيدًا وإلا فإن الزمن سيتجاوزهم ويطوى صفحتهم . وهذا أمر لا يرضاه عاقل لأمته .

وحتى نصل حاضر أمتنا بماضيها العريق فإننا فى حاجة إلى العودة إلى التواصل مع أصول ومقومات حضارتنا الإسلامية فإن ذلك من شأنه - إذا أحسن توظيفه -

---

(١) رواه الترمذى فى سننه .

أن يفسح المجال مرة أخرى أمام المسلمين ليستعيدوا دورهم الحضارى المفقود ويحتلوا مكانهم اللائق بهم فى عالم اليوم ، وبذلك يتم التمكين لهم فى الأرض ، وبالتالى يفرضون احترامهم على الآخرين ، بل إن الإسلام قد جعل التمكين فى الأرض سبيلاً إلى التمكين للدين وتحقيق فرائضه وذلك فى قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[1] .

ويمكن القول بناًء على كل ما سبق بأن الحضارة فى التصور الإسلامى تعنى تحقيق المشيئة الإلهية فى عمارة الأرض ماديًا ومعنويًا ، وبذلك يحقق الإنسان ذاته بوصفه خليفة لله فى الأرض ، وبالتالى يكون فى صلة مستمرة بالله خالق الكون ، وهذه الصلة كفيلة بأن تصحح له دائمًا مساره على الأرض حتى لا يضل الطريق .

المسلمون والعولمة:

ومن البديهى أن قوة المسلمين الحضارية ستجعلهم قادرين على مواجهة كل التحديات الخارجية التى أتت بها العولمة المعاصرة . ونحن ابتداءً لسنا مع أو ضد العولمة ولكننا مع النظرة النقدية الواعية للعولمة ولغيرها من التيارات الوافدة . وأعتقد أن الضرورة تحتم أن يكون للمسلمين نظرتهم النقدية التى تتعمق فى بحث القضايا بكل أبعادها ، وتحللها من جميع جوانبها ، وتخط لنفسها طريقًا لا يتجاهل الواقع من ناحية ، ولا يندفع دون وعى نحو كل دعوة جديدة من ناحية أخرى .

وأود أن أشير هنا إلى بعض الملاحظات المبدئية .

أولاً : الإسلام كدين ليس تيارًا فكريًا أو ظاهرة وقتية حتى يخشى عليه من التيارات الفكرية الوافدة . إنه دين له جذور ضاربة فى أعماق الكيان الإسلامى ، وأصول راسخة لا تستطيع أن تنال منها التيارات الوقتية الطارئة ولا يُخشى

(١) سورة الحج : ٤١ .

على هذا الدين من أى تيارات داخلية أو خارجية مهما كانت قوتها طالما فهم المسلمون هذا الدين فهمًا صحيحًا ، وأدركوا إدراكًا واعيًا أهدافه النبيلة وغاياته السامية وجوهره الحقيقى .

ثانيًا : العولمة واقع لا يجدى معه أسلوب الرفض . إنه تيار بدأ بالمجال الاقتصادى ثم امتد إلى المجالين السياسى والثقافى ، بالإضافة إلى المجال الإعلامى . وهذا الواقع يعد حقيقة ماثلة أمامنا لا مجال لإنكارها .

ثالثًا : لا يجوز لنا أن نتجاهل أننا لا نعيش وحدنا فى هذا العالم ، وأننا نعيش الآن فى عصر ثورة الاتصالات والمعلومات ، والثورة التكنولوجية ، وفى عصر السماوات المفتوحة ، وهذا يعنى أنه لا مجال للانعزال أو التقوقع .

وإذا كانت العولمة تهدف إلى إزالة الحواجز بين الأمم والشعوب - كما سبق أن أشرنا - ، وتحاول بطرق مختلفة فرض قيم معينة وحضارة معينة هى قيم الحضارة الغربية ، أو قيم الأقوياء ، فإن ذلك لا ينبغى أن يصيبنا بالفزع وفقدان التوازن ، لأن ذلك لن يجدى فتيلاً ، ولن يتيح لنا الفرصة للتفكير السليم . فنحن - كما سبق أن أشرت - أمام واقع ، وواجبنا هو أن نتعامل معه . وهذا الواقع ليس كله شرًا ، وليس كله خيرًا . ومن هنا ينبغى التعامل معه على هذا الأساس .

إن العولمة - فى رأينا - تمثل بالنسبة للمسلمين دعوة غير مباشرة إلى ممارسة النقد الذاتى ليعيدوا النظر فى حساباتهم ، ويعيدوا ترتيب البيت من الداخل ، وهذه الدعوة تأتى بطبيعة الحال دون قصد من أصحاب العولمة . وقد يرى البعض أن العولمة تمثل استفزازًا للمسلمين ، ونرى أنه استفزاز مفيد إذا أحسن المسلمون التعامل معه بأسلوب عقلانى بعيد عن التشنج والانفعال .

إن القضية - فى رأينا - تدور حول أسلوب التعامل مع هذا الواقع الجديد والتفاعل معه بطريقة سليمة . أما إذا تجاهلنا الواقع واكتفينا بعبارات الرفض والشجب والإدانة والاستنكار لأساليب الهيمنة والسيطرة وفرض النظم

الغربية ...إلخ - فإننا بذلك سنظل ندور حول أنفسنا مكتفين بدفاع الحناجر . وهذا أمر لا يرضاه مسلم عاقل . ولسنا فى حاجة إلى التأكيد على أن العالم الإسلامى يملك كل أسباب القوة الاقتصادية ، فهو عالم غنى بموارده الطبيعية ، وموقعه الجغرافى المتميز، وثروته البشرية ، ولا تنقصه الكفاءات العلمية والخبرات الاقتصادية ، وكل ما يحتاجه هو الإرادة الفاعلة لتحقيق الانطلاقة الاقتصادية المرجوة .

إن الأمر إذن بيدنا - نحن المسلمين - وعلينا أن نختار لأنفسنا الطريق القويم المحقق للأهداف ، وعلينا أن ندرك أن الإسلام منذ اللحظة الأولى كان ولا يزال دعوة عالمية للناس جميعًا . ومن هنا لفت نظرهم إلى وحدة الأصل الإنسانى . فالناس جميعًا إخوة . وإذا كانوا مختلفين فى أجناسهم وأعراقهم ومعتقداتهم فإنهم - على الرغم من ذلك - ينتسبون جميعًا إلى أصل إنسانى واحد .

وهذه الاختلافات - فى ضوء هذه الوحدة الإنسانية الراسخة - من شأنها أن تكون منطلقًا للتعارف والتآلف والتعاون ، لا للتنازع والتخاصم والشقاق - كما يقرر القرآن الكريم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[1] .

وهكذا كانت دعوة الإسلام دعوة عالمية إلى الأخوة الإنسانية فى كل زمان ومكان ، ويمكن القول بأن الإسلام يعد دين العولمة الحقيقية ، وإن كان هذا القول لن يروق لفريقين على طرفى نقيض ، أحدهما سيعتبر ذلك محاولة لأسلمة العولمة ، وثانيهما سيعده دعوة إلى تغريب الإسلام . وكلا الفريقين جاهز بشعاراته لخوض معركة وهمية لا نريد أن نشغل أنفسنا بها .

إن العالم يسير من حولنا بسرعة مذهلة ، والمتغيرات على الساحة الدولية لا تكف عجلتها عن الدوران . وقد استطاع الغرب أن ينشر العولمة بإيجابياتها وسلبياتها بفضل الثورة العلمية والتكنولوجية ، وثورة المعلومات والاتصالات

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

وشبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) ، والبث التليفزيونى المباشر ، وامتلاك ناصية المعرفة والمعلومة التى أصبحت اليوم مصدر القوة . وكل يوم يمضى يزيد من اتساع الفجوة بين المسلمين وبين العالم المتقدم . ولا خلاص لنا إلا بالأخذ بكل أساليب التطور العلمى والتقنى والحضارى ، والعمل الجاد المنتج على جميع المستويات ، والمشاركة الفعالة فى تقرير مصير هذا العالم الذى نعيش فيه ، والإسهام فى استعادة التوازن المفقود فى حضارة العصر . وإلا فلسنا جديرين بالحياة . ولم يعد لصياح الحناجر ورفع الشعارات الجوفاء أى معنى .

لقد أضاع المسلمون الكثير من عمر الزمن فى تفاهات الأمور ، والآخرون يصارعونهم فى عظائم الأمور ، والغالبية من المسلمين غير واعين بمتغيرات العصر ، وغير مدركين لأبعاد المخاطر التى تحيط بهم من كل جانب ، لأنهم مشغولون بقضايا هامشية ، ومهتمون ببعض المظاهر الشكلية فى الدين ، والآخرون يزلزلون فى جذورهم وهم لا يشعرون .

إن الأمر جد خطير ، وعلى مفكرى المسلمين فى كل مكان ألا يكفوا عن الدعوة إلى إيقاظ النائمين وتنبيه الغافلين لتنهض الأمة وتشارك فى مسيرة التقدم على المستويين المادى والروحى ، وتحتل مكانها اللائق بها بين الأمم .

* * *

الأمن المجتمعى فى الإسلام[1]

مفهوم الأمن من المفاهيم المحورية فى حياة الإنسان . لقد كان ذلك هو الحال فى الماضى ، ولا يزال كذلك فى الحاضر وسيظل فى المستقبل أيضًا . فالأمن ركيزة أساسية لكل تحركات الإنسان فى مختلف المجالات . وبدون الأمن تختل الموازين وتضطرب حركة الحياة وتتوقف عن الانطلاق نحو تحقيق الآمال للأفراد والجماعات .

ومن هنا تحرص الأمم فى كل زمان ومكان على توفير الأمن لشعوبها حتى تستطيع الانطلاق إلى آفاق التقدم والرقى . وعندما نتحدث فى هذا المؤتمر عن الأمن فإننا نقصد الأمن بمفهومه الشامل لكل جوانب الحياة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو دينية ، وعلى مستوى الأفراد والجماعات .

ويرتبط مفهوم الأمن فى الشريعة الإسلامية بالحقوق الأساسية للإنسان والتى بدون الحفاظ عليها لا يمكن الحديث عن الأمن فى أى صورة من الصور ، وتتمثل هذه الحقوق الأساسية للإنسان فى المقاصد الخمسة للشريعة الإسلامية . وعلى رأس هذه المقاصد حماية حق كل فرد فى المجتمع فى الأمن على حياته . فالإنسان خليفة الله فى الأرض ، كرمه وفضله على بقية المخلوقات وكلفه بعمارة الأرض وصنع الحضارة فيها . وحتى يستطيع أن يتحمل مسئولياته التى كلفه الله بها فى هذه الحياة لابد أن يكون آمنًا على حياته فى المقام الأول وآمنًا على عدم المساس بها بأى شكل من الأشكال .

---

(١) كلمة افتتاحية فى المؤتمر العشرين للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى ١٦/ ٣/ ٢٠٠٨ .

ويرتبط بضمان حق الحياة للإنسان مقاصد أخرى أساسية تعد أيضًا شروطًا أساسية لا غنى عنها لتوفير الأمن للأفراد والجماعات . وتتمثل هذه الشروط فى الحفاظ على العقل وتمكينه من أداء دوره الفاعل فى حياة الإنسان ، وكذلك الحفاظ على عقيدة الفرد وعدم المساس بها أو العدوان عليها ، فهى من أخص خصوصياته التى من شأنها أن توفر له الأمن النفسى والاطمئنان الداخلى . ويؤكد الإسلام أيضًا على حماية الملكية الخاصة للأفراد والجماعات وعلى حماية الأسرة التى تعد الخلية الأساسية لتكوين المجتمعات على نحو سليم .

ومن ذلك يتضح أن الأمن يتسع مفهومه ليشمل الأمن النفسى والروحى والذى يطلق عليه القرآن الكريم السكينة ، بمعنى الاطمئنان النفسى الذى يقضى على كل شكل من أشكال القلق من النفوس ، وذلك فضلاً عن الأمن المادى أو الخارجى . وقد أكد القرآن الكريم على الأمن فى هذين الجانبين فى قوله تعالى متحدثًا عن أهل مكة : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴾[1] .

ومقصد الإسلام من ذلك كله هو سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة على السواء. وإذا اطمأن الإنسان وزال عنه القلق أصبح إنسانًا سويًا قادرًا على الإسهام بشكل فاعل فى توفير الأمن للمجتمع . فأمن المجتمع من أمن أفراده . وتحقيق الأمن المجتمعى على المستويين المادى والروحى هو الهدف الأسمى لتعاليم الإسلام .

ولم تقتصر تعاليم الإسلام على توفير وضمان الأمن المجتمعى للمسلمين فقط، بل إن مظلة هذا الأمن المجتمعى تمتد لتشمل كل من يعيش فى بلاد المسلمين بصرف النظر عن دينه أو جنسه أو لونه . فهؤلاء يشكلون جزءًا أساسيًا من المجتمع لهم جميع الحقوق وعليهم نفس الواجبات . وهذا تطبيق لمبدأ المواطنة والتعددية الدينية والثقافية التى وضع أساسها النبى عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة إلى المدينة

(١) سورة قريش : ٣ ، ٤ .

وأثبتها فى صحيفة المدينة التى تعد أول وثيقة إسلامية تضمن الحقوق للمواطنين جميعًا مسلمين وغير مسلمين .

واهتمام الإسلام بذلك كله هو اهتمام فى الوقت نفسه بأمن واستقرار هذا العالم الذى نعيش فيه . فالمجتمع الإسلامى إذا توافرت له كل أسباب الأمن سيكون من غير شك سندًا قويًا ودعمًا أكيدًا للأمن واستقرار هذا العالم . فالأمن فى المجتمع الإسلامى لا يمكن فصله عن الأمن فى المجتمعات الأخرى . فدوائر الأمن متداخلة وبخاصة فى عصرنا الحاضر عصر العولمة . فما يحدث اليوم فى مكان ما من العالم ينعكس أثره سلبًا أو إيجابًا ، عاجلاً أو آجلاً فى كل مكان فى العالم .

ومن هنا لم يعد التقوقع أو الانعزال عما يجرى فى عالمنا المعاصر أمرًا ممكنًا . فكلنا فى النهاية فى زورق واحد ومصيرنا جميعًا مصير واحد مشترك . والأخطار التى تهدد عالمنا تمس بشكل أو بآخر بقية أجزاء العالم .

وفى تشبيه رائع يصور النبى عليه الصلاة والسلام البشرية كلها وقد اجتمعت فى سفينة ، بعضهم فى أعلاها وبعضهم فى أسفلها . فكان الذين فى أسفل السفينة إذا احتاجوا إلى الماء صعدوا إلى أعلاها . وبعد أن تعبوا من الصعود والهبوط ومضايقة الآخرين فكروا فى إحداث خرق فى أسفل السفينة يستقون منه حاجتهم من الماء . ويقول النبى صلى الله عليه وسلم : إن هؤلاء لو تركوا يفعلون ما يشاءون هلك الجميع وغرقت السفينة[1] . ومن هنا فإنه لابد من التعاون بين الجميع من أجل إنقاذ حياتهم جميعًا . وهذه دعوة إلى التضامن بين البشر جميعًا من أجل درء الأخطار التى تهدد العالم الذى نعيش فيه والذى هو عالمنا جميعًا .

وتعد الزكاة فى المجتمع الإسلامى أحد العوامل المهمة فى تحقيق التضامن والتكامل بين أفراد المجتمع ، وتسهم بالتالى بدور فعال فى تحقيق الأمن المجتمعى المنشود . فمن المعروف أن من خصائص الإسلام التى ينفرد بها عن جميع الديانات

(١) رواه البخارى فى صحيحه .

والشرائع أنه ليس دينًا روحيًا فقط يصرف الإنسان عن دنياه إلى أخراه ، وإنما هو دين اجتماعى فى المقام الأول يسعى إلى تحقيق السعادة للإنسان فى الدنيا والآخرة على السواء . ومن هنا فإنه يوجه الإنسان إلى العمل من أجل الدنيا كأنه يعيش أبدًا وإلى العمل من أجل الآخرة كأنه يموت غدًا . والقرآن الكريم يشير إلى أن العطاء الإلهى والثواب يشمل ثواب الدنيا والآخرة معًا فى قوله تعالى : ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾[1] .

وقد حرص الإسلام على إتاحة كل السبل التى تحقق هذه الأهداف ، فاتجهت تشريعاته إلى تهذيب الفطرة الإنسانية وإلى تنظيم شئون المجتمع . ونظرًا إلى أنه من سنن الله فى الكون أنه قد خلق الناس مختلفين على الرغم من اتفاقهم فى الجوهر ، فإن هذا الاختلاف ينسحب على العديد من الصفات ، كما يشمل التفاوت فى الغنى والفقر لحكمة أرادها الله تعالى . فالبعض منهم يعمل للآخرين ويستمد رزقه من رزقهم ، كما يقول القرآن الكريم : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2] .

وقد حاولت الأنظمة البشرية على اختلاف توجهاتها علاج الفروق بين الأغنياء والفقراء فى المجتمع ، وخاضت من أجل ذلك العديد من التجارب ما بين رأسمالية واشتراكية أو خليط منهما معًا ، ولكنها جميعًا لم تحقق للإنسان السعادة المنشودة . أما الإسلام فقد وضع العلاج الشافى والناجع لهذه المعضلة المزمنة . وجعل العلاج دينيًا يتعبد الناس به تقربًا إلى الله سبحانه وتعالى . وقد تمثل العلاج الإلهى فى نظام الزكاة .

(١) سورة النساء : ١٣٤ .

(٢) سورة الزخرف : ٣٢ .

والزكاة فى الإسلام نظام فريد ارتفع به الإسلام ليجعله فريضة من فرائضه وركنًا ركينًا من أركانه ليقيم بذلك التوازن بين الأغنياء والفقراء فى المجتمع .

وقد نبه القرآن الكريم إلى أن الزكاة التى يدفعها الغنى للفقير ليست منَّة أو تفضلاً وإنما هى حق معلوم قرره الدين - كما يقول القرآن الكريم : ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[1] .

وهكذا نجد أن الزكاة من شأنها أن تحقق التكافل الاجتماعى وتزيل الحسد والحقد من نفوس الفقراء ضد الأغنياء .

ولو أدى المسلمون فى جميع أنحاء العالم الزكاة عما أنعم الله به عليهم من أموال إلى مستحقيها فى المجتمع لما وجدنا هناك فقيرًا يشكو من البؤس والحرمان .

وقد تعقدت أمور الحياة فى العصر الحاضر وأصبح العالم الإسلامى يشكو من الزيادة الرهيبة فى أعداد السكان الذى وصل إلى مليار ونصف مليار مسلم ، ويشكو بالتالى من انخفاض مستوى المعيشة وازدياد الهوة بين الأغنياء والفقراء . ولم يعد أمام العالم الإسلامى لحل هذه المشكلات الحياتية التى يعيشها إلا اللجوء إلى الحل الذى عرضه الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا لتحقيق التوازن بين طبقات المجتمع وتحقيق الأمن والاستقرار فى أقطاره . وهذا الحل يتمثل فى نظام الزكاة الذى لو أحسن تنظيمه واستثماره لتغيرت الصورة تمامًا فى عالمنا الإسلامى .

وكما يحرص المسلمون على أداء الصلاة فإن عليهم أيضًا أن يدركوا أن الزكاة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالصلاة . ولهذا تقرن الكثير من آيات القرآن إقامة الصلاة بإيتاء الزكاة إشارة إلى أهميتها . وتكفل الله تعالى ببيان مصارفها فى آية كريمة من كتاب الله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ

(١) سورة المعارج : ٢٤ ، ٢٥ .

وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[1] . وبين النبى صلى الله عليه وسلم عمليًا ونظريًا الأصناف التى تجب فيها الزكاة .. كما بين عليه الصلاة والسلام من تجب عليه ، والمقدار الواجب إخراجه .

وحبذا لو قامت مؤسسات أهلية فى عالمنا الإسلامى للنهوض بعبء جمع الزكاة وتوزيعها على مستحقيها .

والأمر يحتاج إلى المزيد من التوعية . فالزكاة فضلاً عن أنها تطهير وتزكية للمزكى - كما يقول القرآن الكريم - فإنها من ناحية أخرى كفيلة بحماية ماله وضمان نمائه ولن تنقصه أبدًا كما يقول النبى صلى الله عليه وسلم : «**ما نقص مال من صدقة**»[2] . والله سبحانه وتعالى قد وعد المحسنين الذين يؤدون زكاتهم بمضاعفة الأجر لهم أضعافًا مضاعفة فى الدنيا والآخرة على السواء . كما جاء فى قوله تعالى : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[3] .

* * *

(١) سورة التوبة : ٦٠ .

(٢) رواه الترمذى فى سننه .

(٣) سورة البقرة : ٢٦١ .

الحفاظ على حرمة أماكن العبادة[1]

أود فى البداية قبل أن أتحدث عن مشروع القانون المعروض أن أوضح نقطة مهمة تبين الفرق بين ما أثير فى بعض وسائل الإعلام من الخلط بين حرية التعبير ومشروع هذا القانون .

مشروع القانون المعروض عنوانه (الحفاظ على حرمة أماكن العبادة) وهذا يعنى صيانتها من العبث بها تحت أى مسمى من المسميات ، وذلك حتى تستطيع أن تؤدى رسالتها الدينية على خير وجه . وإذا كانت حرية التعبير مكفولة فى الدستور بنص المادة ٤٧ وينظمها القانون فإن حرية ممارسة الشعائر الدينية يحميها الدستور أيضًا فى المادة ٤٦ ، ولا يجوز أن يكون هناك تعارض بينهما ، فحرية ممارسة الشعائر الدينية فى أماكن العبادة تعنى عدم وجود أى شكل من أشكال الإزعاج أو التشويش يمكن أن يخل بهذه الممارسة للشعائر الدينية عن طريق التظاهر فى المساجد أو بأى شكل آخر. إننا هنا إذن أمام مجالين مختلفين لا يجوز الخلط بينهما ، فأحدهما أمر دنيوى والثانى أمر دينى . وكل له دائرة اختصاص تختلف عن الأخرى .

ومن هنا فإن منطلقنا فى هذا المشروع هو الدين وما يقرره فى ذلك اعتمادًا على نصوص صريحة واضحة لا تقبل التأويل .

إن أماكن العبادة لها مهمة أساسية هى التعبد لله وحده ، هذا التعبد الذى يعبر عن صلة حميمة بين الله والإنسان ، بين العابد والمعبود . وحتى تتهيأ الفرصة للإنسان للدخول فى هذه الصلة على نحو سليم فقد تقرر فى الأديان السماوية إقامة أماكن خاصة للعبادة تشعر الإنسان بالخشوع والخضوع لله ، يتعبد فيها العابد دون إزعاج أو تشويش على عبادته بأى شكل من الأشكال ، لأن أماكن العبادة هى بيوت الله التى لها حرمتها

(١) نص البيان الذى ألقيناه فى مجلس الشعب بمناسبة مناقشة مشروع قانون الحفاظ على حرمة أماكن العبادة.

وقداستها ، وعلى المؤمنين حمايتها وصيانتها مبنى ومعنى . ومن هنا قرر القرآن الكريم أن المساجد لله وحده فقال : ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[1] .

وعندما يدخل العابد فى صلة مع الله عن طريق الصلاة فإن القرآن يطلب منه عدم الجهر بصلاته حتى لا يشوش على غيره وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾[2] . فإذا كانت العبادة ذكرًا لله فلا يجوز أن يرفع صوته بالذكر أيضًا ، بل يجب أن يكون ذلك بصوت خفيض كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ ﴾[3] .

ومن أجل ذلك وجدنا النبى صلى الله عليه وسلم يقول : «**جنبوا مساجدكم خصوماتكم ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وسل سيوفكم**»[4] .

ومن المرويات عن رسول الله أيضًا فى هذا السياق أنه خرج يومًا إلى الناس فى المسجد ليخبرهم بموعد ليلة القدر فوجد رجلين يختصمان فى المسجد ، فكان ذلك سببًا فى حجب تحديد موعد ليلة القدر[5] .

وعندما توفى النبى عليه الصلاة والسلام واجه المسلمون أخطر قضية فى تاريخ الإسلام وهى اختيار خليفة للرسول . وكان يفترض أن يذهبوا إلى المسجد للتداول فى هذه القضية ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك واجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة لمناقشة الأمر الذى يستدعى بطبيعة الحال اختلافًا فى الآراء ورفعًا للأصوات . وهذا أمر لا يليق أن يتم فى المسجد .

وقد سار الصحابة رضوان الله عليهم على نهج رسول الله . ولذلك عندما رأى عمر بن الخطاب رجلاً فى المسجد يرفع صوته نهره وقال له مستنكرًا : أتدرى أين أنت؟

---

(١) سورة الجن : ١٨ .

(٢) سورة الإسراء : ١١٠ .

(٣) سورة الأعراف : ٢٠٥ .

(٤) رواه الحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد ومنبع الفوائد .

(٥) رواه البخارى فى صحيحه ، ونصه : « أن رسول الله خرج يُخبر بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين فقال : إنى خرجت لأخبركم بليلة القدر وإنه تلاحى فلان وفلان فرفعت ...» .

وقد سئل الإمام مالك عن رفع الصوت فى العلم فى المسجد فقال : لا أرى فى ذلك خيرًا .

ومن ذلك يتضح أن مهمة المسجد قد تحددت من خلال نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية وأفعال الصحابة . والنبى يقول : «**تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدى طالما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنتى**»(١) .

والنصوص الواردة فى هذا الشأن من القرآن والسنة ليست محلاً للاجتهاد . فلا اجتهاد مع النص كما هو مقرر فى علوم الشريعة .

ويضاف إلى ذلك كله بُعدٌ آخر فى غاية الأهمية ، وهو أن المترددين على المساجد للعبادة يعدون ضيوفًا عند الله فى بيته . ومن الآداب المرعية فى حياتنا العملية عند زيارتنا لبعضنا فى بيوتنا ألا نقدم على أى عمل من شأنه أن يغضب صاحب البيت أو يخل بآداب الضيافة . وإذا كان الأمر كذلك بين البشر فإن من غير المفهوم أو المعقول أن يصر البعض منا على الإخلال بآداب الضيافة عندما يكون ضيفًا عند الله فى بيته ، فى حين أنه لا يجرؤ على شئ من ذلك عندما يكون فى ضيافة أحد الناس .

لقد تعهد الله سبحانه وتعالى عندما يستضيف متعبدًا فى بيته أن يكرمه - كما جاء فى الحديث الشريف - الذى رواه عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) : «**المساجد بيوت الله فى الأرض وحق على المزور أن يكرم زائره**»(٢) .

فهل يكون الرد على هذا الإكرام الإلهى بالإخلال بقدسية وحرمة بيوت الله؟ إن هذا أمر غير مقبول لا عقلاً ولا شرعًا ولا عرفًا .

لقد لاحظت وزارة الأوقاف منذ بضع سنوات وحتى الآن أن بعض المساجد تُنتهك حرمتها ويتخذها البعض مقرات للتظاهر لفترات طويلة بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع مستخدمين فى ذلك مكبرات للصوت يحضرونها معهم ، ويستدعى هؤلاء مسبقًا بعض القنوات الفضائية وبخاصة تلك الفضائيات المتخصصة فى الهجوم على مصر، وذلك بقصد الدعاية والترويج لأفكار سياسية لا صلة لها بالدين، فضلاً عن الشتائم والهتافات التى لا تليق بأى حال من الأحوال أن تنطلق

(١) رواه الدارقطنى والبيهقى فى سننهما .

(٢) رواه الحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد .

من بيوت الله . وقد وصل الأمر إلى الحد الذى أصبح السكوت عليه يعد مخالفة لتعاليم الدين .

فهل يعقل أن تصبح بعض المساجد وبخاصة الجامع الأزهر مثل حديقة هايد بارك فى لندن؟ إن هذا هو ما يحدث للأسف الشديد . وليس فيما أقول أيّ مبالغة ، فلدىَّ عينات من بعض صور هذه التظاهرات فى الجامع الأزهر بالذات نشرتها بعض الصحف . أود أن أعرض على حضراتكم بعضًا منها :

١ - **مظاهرة بالشباشب فى الجامع الأزهر** (منشورة بجريدة الوفد فى ١٢/ ٨/ ٢٠٠٦م) .

٢ - **مظاهرة تحرق فيها الأعلام بالجامع الأزهر** (منشورة بمجلة أكتوبر ١٣/ ٨/ ٢٠٠٦م).

٣ - **مظاهرة للتنديد بإعدام صدام فى الجامع الأزهر** (منشورة بالجمهورية فى ٦/ ١/ ٢٠٠٧م) .

٤ - **مظاهرة للاحتفال بحزب الله اللبنانى ورفع أعلامه فى الجامع الأزهر** (منشورة بجريدة الوفد فى ١٩/ ٨/ ٢٠٠٦م)

وذلك فضلاً عن التطاول على العلماء الذين يقومون بالخطابة فى المسجد لأنهم لا ينصاعون لما يريده هؤلاء المتظاهرون قولاً أو فعلاً . وغير ذلك من أمثلة أخرى صارخة.

فهل هذا يتفق مع حرمة المساجد؟ وهل هذا يليق أن يحدث فى بيوت الله التى قرر القرآن الكريم أنها له وحده وأنه لا يجوز أن يذكر فيها اسم أحد غيره كما تقول الآية الكريمة : ﴿ **وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا** ﴾[1] .

إن الأمر لا صلة له بحرية التعبير . ولا يعدو الخلط بين حرمة أماكن العبادة وحرية التعبير إلا قلبًا للحقائق وخلطًا للأوراق .

وقد يقال إن انطلاق ثورة ١٩١٩م كان من الجامع الأزهر . نعم ، لقد كان ذلك حدثًا استثنائيًا يمثل اجتماعًا من كل المصريين على رفض الاحتلال . ومع ذلك لم يكن التظاهر فى داخل المسجد بل خرجت الجموع إلى الشارع تعلن ثورتها ضد المحتلين لأرض مصر .

---

(١) سورة الجن : ١٨ .

وقد يقال إن الرئيس عبد الناصر خطب عقب العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦م فى الجامع الأزهر . نعم ، من حق الخليفة أو الحاكم أو رئيس الدولة شرعًا أن يقف خطيبًا على المنبر فى المسجد بهدف توحيد صفوف الأمة لمواجهة أخطر القضايا التى تهددها كما فعل الرئيس عبد الناصر ، ولكن الجامع الأزهر لم يتخذ حينذاك مكانًا للتظاهر . بل خرجت الجموع إلى الشارع لتعبر عن وقوفها صفًا واحدًا لمواجهة الذين دنسوا أرض مصر ومع ذلك لم يحدث هذا إلا مرة واحدة .

وقد يقال : إن المسجد على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام كانت تعقد فيه مجالس التشاور فى الحرب والسلم ، ومجالس القضاء والعلم ، وغير ذلك من أنشطة أخرى . ونقول : نعم ، لقد كان ذلك يتم فى المسجد لأنه لم تكن هناك مؤسسات أو دواوين خارج المسجد ، وكان يتعذر إيجاد مكان آخر لمثل هذه الأنشطة ، فاقتضت الضرورة حينذاك عقدها فى المسجد .

أما الآن ومنذ عهد عمر بن الخطاب فقد تم تدوين الدواوين وتوزيع الاختصاصات على المؤسسات المختلفة ، وأصبح لكل منها مقرات خاصة بها . ومن ثم فإنه من غير المعقول مثلاً أن نغلق المحاكم ووزارات الدفاع والتربية والتعليم والتعليم العالى والمدارس والجامعات ، ونحول أعمالها إلى المساجد بحجة أن ذلك كان معمولاً به فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، كما علينا أيضًا أن نغلق النوادى الرياضية ومراكز الشباب ونحول أنشطتها إلى المساجد بحجة أن النبى عليه الصلاة والسلام قد سمح ذات مرة فى أحد الأعياد للأحباش ببعض الألعاب فى المسجد .

إن القياس هنا على ما كان يحدث فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام أمر غير وارد إطلاقًا . فما كان يحدث حينذاك لم يكن يحدث تشويشًا أو أى شكل من أشكال الضوضاء والإزعاج فى المسجد ، فضلاً عن أن هناك فارقًا بين السماء والأرض بين ما كان يحدث على عهد رسول الله وما يقوم به البعض اليوم من مظاهرات صاخبة تحدث فيها أمور لا تليق بأى حال من الأحوال ببيوت الله ، ولسنا نبالغ إذا قلنا إن ما يحدث اليوم فى بعض المساجد يعد انتهاكًا صارخًا لحرمة دور العبادة ولا يتفق بأى حال من الأحوال مع الدين أو العقل أو الأعراف المرعية .

ومن هنا جاء التفكير فى وضع حد لهذا العبث ببيوت الله التى أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه وحده كما يقرر القرآن ذلك فى قوله : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[1] .

وما قلناه عن المساجد والحفاظ على حرمتها ينسحب بطبيعة الحال على دور العبادة المسيحية واليهودية . فكلها بيوت يذكر فيها اسم الله كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾[2] .

ومعنى الآية أنه لولا أن الله يسخر للقَوِىِّ المعتدى من هو أقوى منه لطغى فى الأرض وعم شره إلى الحد الذى يخرب فيه بيوت الله التى خصصت للعبادة وذكر الله . والمقصود بالصوامع الأديرة ، أما البيع فهى الكنائس ، وأما الصلوات فهى معابد اليهود والمساجد هى معابد المسلمين .

ومن هنا فالحفاظ على حرمة هذه الأماكن وصيانتها من العبث بها بأى شكل من الأشكال أمر واجب على كل من يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهى أمانة فى أعناق الجميع .

وإذا كنا جميعا مسئولين عن حماية بيوت الله والغيرة على دين الله فإن الأمر يتطلب تشريعًا يؤكد ذلك ضمانًا لوضع الأمور فى نصابها الصحيح ، ووضع حد لما طرأ من خلل فى السنوات الأخيرة على هذا الالتزام الدينى المقدس .

* * *

(١) سورة النور : ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) سورة الحج : ٤٠ .

التجربة المصرية فى تجديد الخطاب الدينى[1]

١ ـ تمهيد : ضرورة التجديد

التجديد سنة الحياة ، والتغيير قانون الوجود ، ولا يوجد شئ مخلوق يظل على حاله إلى الأبد . والبديل للتجديد هو الجمود ، والجمود يعنى توقف الحياة فى هذا الكون عن الحركة ، وهذا أمر مستحيل لأن الحياة والحركة صنوان لا يفترقان .

والإسلام بطبيعته دين لا يتناقض مع سنن الحياة ، ولا يصادم الفطرة الإنسانية، ومن هنا يشجع الإسلام على التجديد المستمر لحركة المجتمع من أجل الوصول إلى الأفضل فى جميع مجالات الحياة .

ونظرًا لأن الإسلام فى تعاليمه يعد دينًا للحياة بكل أبعادها فإن التجديد الذى يطلبه الإسلام يعد أيضًا تجديدًا للحياة بكل جوانبها المختلفة ، أما التجديد فى الفكر الإسلامى فله صور عديدة ، فقد يكون تجديدًا شاملاً لجميع مناحى الحياة ، وذلك إذا أصاب التدهور مرافق الحياة كلها ، وقد يكون تجديدًا فى أحد الجوانب التى أصابها الجمود أو الخلل لمنع انتشار عدوى التدهور أو الخلل إلى جوانب أخرى ، وقد يكون تجديدًا مرحليًا ، وقد يكون جذريًا ، وكل صورة من هذه الصور لها ظروفها ومتطلباتها .

والتجديد الذى نعنيه ليس أمرًا عشوائيًا ، ولا ينطلق من فراغ ، وإنما هو تجديد يتوقف على فهم الواقع من أجل الكشف عما فيه من سلبيات للانطلاق من ذلك الفهم إلى تصحيح الأوضاع وتمهيد السبيل لإثراء الحياة بالمزيد من الإبداع الذى

---

(١) محاضرة ألقيت فى افتتاح الندوة المصرية التونسية المشتركة حول تجديد الخطاب الدينى فى قاعة الإمام محمد عبده بجامعة الأزهر (يونية ٢٠٠٨) .

يضيف جديدًا إلى دنيا الناس فى جميع المجالات ، الأمر الذى من شأنه أن يصلح لهم دينهم ودنياهم على السواء .

٢ ـ قضية إسلامية :

ولعله من نافلة القول أن نؤكد أن قضية التجديد فى الخطاب الدينى الإسلامى ليست قضية موسمية أو مؤقتة أو مستوردة من هنا أو هناك ، وإنما هى قضية إسلامية مستمرة ومتواصلة تتجدد بتجدد الزمان والمكان . ومن الطبيعى أن يكون الخطاب الدينى مواكبًا لظروف كل عصر ولما يدور فيه من متغيرات ، وذلك بالتجديد المستمر فى أسلوب الخطاب الدينى وفى مضمونه حتى يستطيع أن يصل بالرسالة التى يريد توجيهها للناس إلى عقولهم وقلوبهم . أما إذا انفصل الخطاب الدينى عن واقع الحياة ومتغيرات العصر فإنه لن يجد من يلتفت إليه أو يعيره اهتمامًا.

وأول من مهد لنا الطريق فى هذا الصدد هو النبى محمد عليه الصلاة والسلام حينما قال : «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»[1] . فالنبى أول من استخدم مصطلح التجديد فى هذا الصدد . وقد فسر علماؤنا السابقون التجديد بأنه إحياء السنة وإماتة البدعة . وعلى الرغم من أن هذا التفسير لا يعبر عن المقصود على نحو جامع مانع فإننا لو فهمناه جيدًا لوجدنا فيه علاجًا لكثير من أمور الدعوة الإسلامية والقضاء على الكثير من العادات الضارة والسلوكيات الخاطئة .

ولكن هناك بطبيعة الحال قضايا أخرى كثيرة ومتشعبة طرأت على حياتنا المعاصرة ينبغى أن تؤخذ فى الحسبان ، فنحن فى عصر مختلف تمامًا عن العصور السابقة ، ولا يجوز بأى حال من الأحوال أن يظل الدعاة فى العصر الحاضر يرددون ما كان يردده الدعاة قبل خمسين أو مائة سنة أو أقل أو أكثر ، فظروف الحياة متجددة. وليس من المعقول ولا من المقبول أن يتجمد الخطاب الدينى عند فترة زمنية معينة .

---

(١) رواه أبو داود فى سننه .

٣ ـ تجديد الدنيا بالدين :

والخطاب الدينى يعد رسالة دينية ودنيوية فى الوقت نفسه ، فمن شأن الخطاب الدينى المستنير أن يحرك الناس ويدفعهم إلى العمل والإنتاج ، وبذلك يساعد فى دفع عجلة الحياة إلى الأمام ، ولا يجوز أن يقتصر الخطاب الدينى على موضوع الترهيب المستمر والقوارع التى لا تتوقف والتخويف المتواصل من العذاب المقيم فى نار جهنم. فالإسلام أولاً وقبل كل شئ دين الرحمة للإنسانية كلها كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1] ، كما أنه دين يغرس فى نفوس المؤمنين به الأمل الذى تشرق به الحياة وتنتعش به القلوب وتحيا به العقول . والقرآن الكريم يقول فى هذا الشأن : ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[2] .

فالله سبحانه وتعالى قد فتح باب الأمل على مصراعيه لكل الناس ، ودعانا لأن نتعارف ونتآلف ونتعاون ونتسابق فى الخيرات من أجل خير الإنسان بصرف النظر عن معتقده أو جنسه أو لونه . فالجميع يشتركون معنا فى الأصل الواحد للإنسانية كلها ، وطالما لم يعتد أحد منهم على المسلمين فهم إخوة لنا لهم ما لنا وعليهم ما علينا. وهذا ما ينبغى أن يستقر فى وعى الدعاة إلى الله على هدى وبصيرة .

وكما يحرص الإسلام على العمل للآخرة فإنه فى الوقت نفسه يحض على العمل من أجل الدنيا وتعميرها والارتقاء بها ، كما يؤكد ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ﴾[3] .أى طلب منكم عمارتها وصنع الحضارة فيها . فليست هناك آخرة بدون دنيا . وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم

(١) سورة الأنبياء : ١٠٧ .
(٢) سورة الزمر : ٥٣ .
(٣) سورة هود : ٦١.

حريصًا فى دعائه أن يطلب من الله إصلاح دنياه وآخرته معًا ، ومن ذلك قوله : **«اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى إليها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر»**[1] .

وقد آن الأوان لأن ينشغل الخطاب الدينى المعاصر بهموم الناس وقضايا المجتمع ومشكلات العصر ، والاهتمام بمقاصد الشريعة التى تؤكد الحقوق الأساسية للإنسان فى كل زمان ومكان ، والعناية بقضايا المرأة وتمكينها من القيام بدورها فى تقدم المجتمع ، والتركيز على القيم الإسلامية الدافعة إلى تقدم المجتمع وترقية الحياة مثل العلم والعمل والحفاظ على الوقت واستثماره فى كل عمل مفيد ، والاهتمام بقضايا قبول الآخر والحوار بين الأديان والحضارات وقضايا البيئة والإدمان والصحة النفسية للأفراد والجماعات ، والعمل على إحياء الأمل فى النفوس وحمايتها من الإحباط واليأس ، وقبل كل ذلك وبعده ضرورة تمكين العقل الإنسانى من أداء دوره الفاعل فى الحياة وتربية العقلية النقدية التى لا تأخذ كل شئ على علاته وإنما تزنه بموازين العقل السليم والمنطق الصحيح ، وبصفة عامة فإن على الخطاب الدينى أن يهتم بالتكوين السليم لشخصية الفرد المسلم ليكون لبنة صالحة فى بناء المجتمع والنهوض به والقدرة على مواجهة متطلبات عصر العولمة حتى تستعيد الأمة الإسلامية مكانها ومكانتها فى عالم اليوم الذى لم يعد فيه مكان للكسالى والمستضعفين .

وعلى الأئمة والدعاة أن يدركوا ذلك جيدًا ، فهم الذين يتصدون أسبوعيًا كل يوم جمعة لتوعية الجماهير فى كل مكان ، وهم الذين يتحدثون باسم الدين فى وسائل الإعلام . ومن هنا يجب أن يعوا مدى ما سيحدثه ما يقولونه من تأثير فى نفوس الناس وسلوكهم .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه .

٤ـ التجربة المصرية فى تجديد الخطاب الدينى :

وانطلاقًا من الحقائق المشار إليها كان لزامًا على وزارة الأوقاف المصرية أن تقوم بواجبها وتتحمل مسئولياتها فى هذا الصدد ، وبخاصة أنها تشرف إشرافًا كاملاً على أكثر من مائة ألف مسجد وزاوية على مستوى الجمهورية . وقد كانت الدعوة التى أطلقها السيد رئيس الجمهورية فى احتفال الوزارة بليلة القدر عام ٢٠٠١م ودعا فيها إلى ضرورة تجديد الخطاب الدينى ، والتى تكررت بعد ذلك فى عدة مناسبات ، كانت حافزًا قويًا ودافعًا محركًا إلى العمل على نحو منهجى لوضع هذه الدعوة موضع التنفيذ .

ولا شك فى أن المرحلة التاريخية الراهنة قد حفلت بمتغيرات متعددة الأشكال والألوان مست جوانب الحياة العلمية والثقافية والفكرية والدينية ، وكان لها تأثيرها الملحوظ فى كثير من مضامين الأعمال الإنسانية فى كل مكان فى العالم بحيث لم يعد فى مقدور مجتمع من المجتمعات أن يعيش بعيدًا عنها ، أو أن ينعزل فى دائرة محدودة فى فكره وعاداته وتقاليده التى توارثها عبر الأجيال .

ومن أجل ذلك كان لابد أن تتحرك المؤسسة الدينية لمواكبة هذه المتغيرات ، وتطوير أساليبها حتى لا يفوتها الركب ويتجاوزها الزمن . وكان عليها أن تتفاعل مع الأحداث مؤثرة فيها بما لديها من رصيد دينى له تأثيره وصلته بكل جوانب الحياة.

ومن هنا قامت وزارة الأوقاف فى بداية عام ٢٠٠٢م بتنظيم ندوة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية لمناقشة أبعاد قضية تجديد الخطاب الدينى ، دعت إليها نخبة من علماء ومفكرى الأمة ليدلى كل بدلوه فى هذا الموضوع المهم . وقد أردنا من وراء عقد هذه الندوة أن نستفيد من كل الآراء والأفكار التى تساعد فى تكوين مقترحات عملية يمكن تضمينها فى برامج تدريب الدعاة وفى المطبوعات التى توزعها الوزارة عليهم لتساعدهم على حسن أداء مهمتهم التى تنعكس بدورها على جماهير الأمة .

وكانت الوزارة قد أعدت ورقة عمل حول تطوير الخطاب الدينى تم طرحها فى الندوة المذكورة لتكون بمثابة دليل إرشادى للمناقشات . وقد تضمنت هذه الورقة أربعة محاور على النحو التالى :

- **المحور الأول** : النقد الذاتى للخطاب الإسلامى المعاصر :

- نظرة تأملية فى مضمون الخطاب الدينى فى ضوء ما يوجه إليه من نقد إيجابى معاصر .

- معالجة ضعف المضمون بما يتناسب وضرورة مواكبة قضايا العصر .

- معالجة ضعف الأسلوب ومخاطبة الناس بروح العصر ووسائله بما يحقق أهداف الدعوة ويبرز محاسن الإسلام .

- تحديد الاتجاهات والغايات المرجوة من الخطاب الدينى فى عصر العولمة .

- إبراز الجوانب الإنسانية فى الإسلام مع بيان الحكمة الكبرى من إرسال الأنبياء بالهدى ودين الحق .

- التأكيد على أهمية القضايا الاجتماعية وكيفية تناولها بما يبرز الوجه الحضارى للإسلام .

- **المحور الثانى** : ألوان الخطاب الدينى :

- خطبة الجمعة : أنواعها وأساليبها .

- كيف تكون خطبة الجمعة دافعة إلى الأمام وليست محبطة ؟

- كيف يتلقى المثقفون ما يعرض عن الدين الإسلامى من جانب المسلمين أو من غيرهم ؟

- مخاطبة الآخر - وكيفية الاهتداء بالخطاب القرآنى فى هذا الموضوع .

- مخاطبة الآخر غير الناطق بالعربية . والأسلوب الأمثل لذلك .

- كيفية إبراز جوانب التسامح والرقى الحضارى والخلقى فى الدين الإسلامى .

- **المحور الثالث** : التحديات التى تواجه الخطاب الإسلامى المعاصر :
  - عدم إحاطة الدعاة بالتقنيات الحديثة والقضايا العلمية المستجدة وغير ذلك مما يطرح على العالم فى كل يوم بصورة غير مسبوقة .
  - التحديات الاقتصادية التى يواجهها العالم النامى وما لها من آثار سلبية على المجتمعات النامية .
- **المحور الرابع** : مقترحات للارتقاء بالخطاب الإسلامى المعاصر :
  - إعادة تأهيل الدعاة بما يحقق العلاقة بين التعليم والعمل فى مجال الدعوة .
  - تحديث مناهج جامعة الأزهر المتصلة بالدعوة والدعاة .
  - استمرارية تدريب الدعاة واستحداث نظم جديدة لهذا التدريب تواكب مستجدات العصر .

وقامت الوزارة بعد ذلك بإصدار كتيب اشتمل على مجمل الآراء والتصورات التى عرضها السادة المشاركون فى الندوة تحت عنوان : تجديد الخطاب الدينى ... لماذا وكيف ؟ وصدر فى إبريل عام ٢٠٠٢م . وأعيد طبعه مرة أخرى عام ٢٠٠٤م .

وقد تم توزيع هذا الكتيب على أئمة المساجد فى أنحاء البلاد ، كما تم إدخال مادة تجديد الخطاب الدينى فى برامج تدريب الدعاة فى المراحل المختلفة التأهيلية والتخصصية والراقية .

واستمرت جهود الوزارة فى هذا السبيل فأصدرت كتابين آخرين عن تجديد الخطاب الدينى من تأليف بعض الدعاة فى وزارة الأوقاف . وتم توزيعهما أيضًا على الدعاة . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل استمرت الجهود فى هذا الصدد ، وقامت الوزارة بتكليف ثلاثة من العلماء بتأليف كتاب بعنوان «دليل الإمام إلى تجديد الخطاب الدينى» وصدر الكتاب فى العام الماضى ٢٠٠٧م وتم توزيعه على جميع الأئمة فى مصر .

وقد اشتمل هذا الدليل على عشرة مباحث تناولت تحديد معنى التجديد ومجالاته ووسائله ومقاصد الشريعة وقضايا ومفاهيم معاصرة ، كما تناولت موضوعات العقل والعقلانية فى الإسلام وسماحة الإسلام بين النظرية والتطبيق وتجديد الخطاب الدينى من خلال خطبة الجمعة ومن خلال المناسبات .

وحتى تطمئن الوزارة إلى أن ما ورد فى هذا الدليل يلبى المطلوب من تجديد الخطاب الدينى قامت بتوزيع نسخ منه على مجموعة من العلماء والمفكرين ودعتهم إلى ندوة لمناقشة ما ورد فى هذا الكتاب . وقد عقدت هذه الندوة منذ حوالى أربعة أشهر ، وعرض المشاركون فيها ملاحظاتهم فى هذا الصدد .

وحتى تعم الفائدة ويتعرف الدعاة على وجهات النظر المختلفة حول هذا الدليل بصفة خاصة وحول تجديد الخطاب الدينى بصفة عامة أصدرت الوزارة كتابًا يشتمل على كل ما دار فى هذه الندوة من مناقشات ثرية وقد صدر هذا الكتاب منذ أيام قليلة تحت عنوان : «تجديد الخطاب الدينى» حلقة نقاشية حول كتاب : دليل الإمام إلى تجديد الخطاب الدينى . وستقوم الوزارة بتوزيعه على جميع الأئمة ، وذلك بالإضافة إلى طرحه لجمهور القراء فى سلسلة قضايا إسلامية التى يقوم المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بإصدارها .

ولا يزال موضوع تجديد الخطاب الدينى فى حاجة إلى المزيد من الجهود حتى يحقق الثمرة المرجوة فى إحداث نقلة نوعية فى الخطاب الدينى شكلاً ومضمونًا .

واتصالاً بموضوع تجديد الخطاب الدينى كان لابد من بذل جهود أخرى فى مجال الكشف عن بعض المفاهيم الخاطئة والأفكار المغلوطة والعادات المستهجنة التى نسبت إلى الإسلام بمرور الزمن فى حين أنه ليس لها أصل فى الدين . ومن بين هذه العادات التى استقرت منذ قرون ختان الإناث ونقاب المرأة ، وقد أصدرت الوزارة كتيبًا بعنوان : «ختان الإناث ليس من شعائر الإسلام» ، كما ستصدر قريبًا كتيبًا آخر عن النقاب وأنه عادة وليس عبادة .

كما أصدرت الوزارة كتابًا حول تنظيم الأسرة فى الإسلام ، أوضحت فيه أن الإسلام لا يقف أبدًا عقبة فى سبيل تنظيم الأسرة ، بل يساعد عليه من أجل النهوض بالمجتمع وتنميته على أفضل الوجوه . كما أصدرت الوزارة أيضًا كتيبًا عن «السلف والسلفية» يحدد المفهوم الصحيح للسلفية بعيدًا عن أى مذهبيات ذات توجهات متشددة بعيدة عن جوهر الإسلام .

وفى مجال الكشف عن الشبهات التى يثيرها خصوم الإسلام ضد هذا الدين . قام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بحصر الشبهات القديمة والحديثة وناقشها ورد عليها بأسلوب علمى . وأصدر المجلس فى ذلك كتاب «حقائق الإسلام فى مواجهة شبهات المشككين» . وتمت ترجمة معظم هذه الشبهات والرد العلمى عليها إلى الإنجليزية ، وصدرت أيضًا فى كتاب يتم توزيعه على نطاق واسع لينتفع به المسلمون فى الخارج وليطلع عليه غير المسلمين ليراجعوا ما درجوا عليه من تصورات غير صحيحة عن الإسلام والمسلمين .

واستمرارًا لهذه الجهود قام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بإصدار كتاب باللغة الإنجليزية عن التسامح فى الحضارة الإسلامية يشتمل على ترجمة لمجموعة من البحوث التى سبق أن قدمت إلى المؤتمر السنوى للمجلس فى دورته السادسة عشرة عام ٢٠٠٤ .

* * *

كلمة ختامية

لقد كانت هذه لمحة سريعة عن بعض الجهود التى تعبر عن التجربة المصرية فى تجديد الخطاب الدينى . ولسنا نزعم أننا بذلك قد أنجزنا كل ما هو مطلوب . فالأمر المهم فى هذا الصدد هو تفعيل البرامج والخطط التى وضعتها الوزارة بهدف تجديد الخطاب الدينى حتى تؤتى ثمارها المرجوة فى دنيا الناس ، وذلك بنشر القيم الإسلامية الدافعة إلى تقديم المجتمع والنهوض بالمواطنين من أجل سعادتهم فى دنياهم وأخراهم . فالإسلام ليس فقط عقيدة وشريعة . وإنما هو أيضًا أخلاق وحضارة . وهذا العنصر الأخير هو الفريضة الغائبة فى دنيا المسلمين . وأى تجديد للخطاب الدينى لا يشتمل على هذا العنصر يعد تجديدًا ناقصًا لا يحقق الغاية المرجوة فى النهوض بالمجتمع وتقدمه وازدهاره .

ولعله من نافلة القول أن نشير إلى أن قضية تجديد الخطاب الدينى الإسلامى تعد قضية تهم المسلمين جميعًا ولا يقتصر الاهتمام بها على شعب من الشعوب أو أمة من الأمم الإسلامية . ومن هنا فإننا فى مصر منفتحون على الاستفادة من كل التجارب الإسلامية التى سبقتنا فى هذا المجال . ويسعدنا اليوم أن نتعرف على التجربة التونسية فى تحديث الخطاب الدينى لنستفيد منها . ونحن على يقين من أنها سوف تثرى عملنا وتضيف إلى تجربتنا الكثير . وسوف نقوم بطبع أعمال هذه الندوة لتعم الاستفادة منها على نطاق واسع إن شاء الله .

* * *

الشـــباب وبنـــاء المســـتقبل

الشباب هم عدة الأمم وهم - كما يقال كثيرًا - نصف الحاضر وكل المستقبل . فهم الذين سيقودون بلادهم فى مستقبل الأيام . ومن هنا تعمد الدول الواعية إلى تربية شبابها تربية سليمة ، وتعمل على إعدادهم لتحمل مسئولياتهم المستقبلية ، وهى مسئوليات جسام من غير شك ، وثروة العالم الإسلامى فى شبابه وليس فيما يملكه من ثروات مادية طبيعية مآلها الزوال فى يوم من الأيام . وعلينا أن نحسن التعامل مع هذه الثروة الشبابية فى بناء أوطاننا وتعمير بلادنا . فالطاقة الشبابية تستطيع أن تنجز المعجزات إذا أحسن ترشيدها وتوجيهها التوجيه السليم .

وقد كان الإسلام حريصًا كل الحرص منذ اللحظات الأولى على إعداد الشباب لتحمل مسئولياته . ولم يكن هذا الإعداد مجرد تلقين نظرى وإنما كان تدريبًا عمليًا وممارسة على أرض الواقع . ولقد حدث هذا - على سبيل المثال - عندما كلف النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة الشاب على بن أبى طالب لينام مكانه لتضليل مشركى مكة ، كما كلفه برد الأمانات التى كانت عنده إلى أصحابها ، كما كان ذلك واضحًا فى المهمة التى قامت بها ذات النطاقين أسماء بنت أبى بكر فى إيصال الغذاء للنبى صلى الله عليه وسلم وصحبة أبى بكر فى مأمنهما بعد خروجهما للهجرة إلى المدينة بعيدًا عن أنظار المشركين . وهى مهمة سرية بالغة الخطورة ، كما كان تدريب الشباب على تحمل المسئولية واضحًا أيضًا فى تكليف الشاب أسامة بن زيد بقيادة جيش المسلمين الذى وجهه النبى ﷺ إلى الشام لرد اعتداءات الروم المتكررة على الدولة الإسلامية وكان فى الجيش كبار الصحابة ، ولم يعترض أحد على ذلك ، والأمثلة فى هذا الصدد لا تحصى .

ونحن إذ نتذكر ذلك كله فى هذه الظروف الراهنة التى تعيشها أمتنا فلكى نستمد من ذلك الدروس والعبر ، ولكى نتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كان يفعله من تدريب للشباب على تحمل المسئوليات الجسام التى تصقل مواهبهم وتنمى قدراتهم وتزيدهم صلابة وعزمًا وقدرة على التغلب على كل ما يصادفهم من صعاب فى أحلك الظروف وفى أصعب المواقف .

وعالمنا اليوم يموج بتيارات متناقضة على نحو غير مسبوق . فتيار العولمة الزاحف بكل قوة عبر العديد من القنوات والمؤسسات الدولية له تأثيراته القوية على الشباب . وغير خاف على أحد ما تقدمه العولمة للشباب من خلال وسائل الاتصال والمعلومات وثورة التكنولوجيا الراهنة .

وإذا كان من المستحيل إيقاف قطار العولمة فإننا من ناحية أخرى ينبغى أن نتبين ما فى هذا التيار من جوانب إيجابية وأخرى سلبية حتى نستفيد من الإيجابيات ونتجنب السلبيات : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾[1] .

ونحن مسئولون عن حماية هذا الشباب المسلم حتى يكون قادرًا على الإسهام فى بناء المستقبل ، وذلك بتحصينه ضد التيارات الضارة التى تحيط به من كل جانب وتزويده بالقيم الإسلامية الأصيلة التى تعد سياجًا منيعًا يحميه من الآثار السيئة للعولمة .

ومن حق الشباب علينا أن نقدم لهم التوعية الضرورية بما يدور حولهم فى عالم اليوم ، وذلك عن طريق التعليم الجيد الذى ينمى عقولهم ويجعلهم قادرين على التفكير السليم والتمييز الواعى بين الخير والشر والصواب والخطأ ، بين ما يفيد وما لا يفيد .

(١) سورة الرعد : ١٧ .

إننا مسئولون أن نقدم لشبابنا تعاليم الدين الإسلامى على أساس من الكتاب والسنة بعيدًا عن أى شكل من أشكال التطرف أو الانغلاق ، وإن نبصرهم بمقاصد الشريعة ووسطيتها واعتدالها . والتأكيد على حرمة النفس الإنسانية ، ومسئولون أيضًا عن نشر التسامح بين أبناء الأمة الإسلامية وإيقاظ روح التعاون والتضامن والإخاء ، وتعريف شبابنا بأن على رأس منظومة القيم الإسلامية قيمة الرحمة كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] . وفى الحديث الصحيح «**الراحمون يرحمهم الرحمن**»[2] وفى حديث آخر «**من لا يرحم لا يُرحم**»[3] . وهذا يعنى أن العدوان وترويع الآمنين وقتل الأبرياء لا يقره عقل ولا دين ، وأن الإرهاب بكل صوره وأشكاله ظاهرة عالمية لا مكان لها فى دين الإسلام الذى يعتبر قتل نفس واحدة بمثابة قتل للإنسانية كلها . وبذلك نحمى شبابنا من الوقوع فريسة فى أيدى فئات تسىء فهم الدين ولا تقيم وزنًا لحرمة النفس الإنسانية .

إننا مسئولون أن نبصر شبابنا بأن الحرية حق للجميع ، ولكن هذه الحرية مرتبطة فى الوقت نفسه بالمسئولية ، فهى حرية مسئولة وليست حرية عشوائية . مسئولون أن نبصر شبابنا بأن المسلمين جميعًا بمثابة جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

إن التشرذم الحالى الذى تعانى منه الأمة الإسلامية قد أضعفها وجعلها مطمعًا للطامعين كما هو حادث الآن فى الكثير من بلدان عالمنا الإسلامى .

إننا إذا قمنا بواجبنا الإسلامى إزاء شبابنا فإننا بذلك نتيح أمامهم الفرصة ونمهد لهم الطريق ونهيئ لهم التربة الصالحة للإسهام بفاعلية فى بناء مستقبل هذه

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

(٢) رواه أبو داود فى سننه .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه .

الأمة ، وغرس بذور الأمل فى كل أرجائها ، وحمايتها من أى أخطار تتهددها . والأمل معقود على هذا الشباب الواعد فى تحقيق الكثير من الإنجازات لأمته الإسلامية .

إن هذا التجمع الشبابى من مختلف بلدان العالم الإسلامى يقدم لهذا الشباب فرصة للتعارف وتبادل الأفكار والتعرف على قضايا الأمة . وسيكتشف هذا الشباب أن هموم الأمة الإسلامية واحدة ، وأن مصائرها مرتبطة ببعضها ارتباطًا وثيقًا ، وأن حلول مشكلات الأمة متشابهة إلى حد بعيد . فالتفاعل بين شباب الأمة ضرورى من أجل تنظيم صفوفه وتنسيق جهوده والعمل سويًا والتفكير مليًا فى كل ما من شأنه أن يقدم الخير لهذه الأمة التى آن لها أن تحتل مكانها اللائق بها فى عالم اليوم ، وأن تمسك بيدها مصائرها وتسير فى طريقها الذى يحقق لها الأهداف المرجوة حتى تتحقق لها الوعود الإلهية الثلاثة التى وعد الله المؤمنين بها إذا استوفوا شروطها كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾[1] .

* * *

(١) سورة النور : ٥٥.

التواصل الإنسانى[1]

الإنسان فى هذا الكون لا يستطيع أن يعيش وحده منعزلاً عن بقية الناس . ومن هنا عرَّف الفلاسفة القدماء الإنسان بأنه مدنى بالطبع ، كما عرفه علماء الاجتماع بأنه كائن اجتماعى . وهذا يعنى أنه فى حاجة إلى غيره من الناس فى شتى أمور حياته . ولا يوجد كائن بشرى يستطيع أن يستغنى عن بقية البشر ، وأقرب مثال على ذلك حاجته إلى المأكل والملبس والمشرب والمسكن وغير ذلك من حاجات تتوقف على أناس آخرين .

ومهما اختلف الناس فى لغاتهم وأجناسهم وعقائدهم فإنهم لا يختلفون فى جوهرهم . فطبيعة الإنسان واحدة فى كل زمان ومكان . ويبدأ اعتماد الكائن البشرى على غيره منذ لحظة ولادته . فهو فى حاجة إلى من يرعاه إلى أن يكبر ويستطيع أن يعتمد على نفسه .

وإذا كنا فى حاجة إلى غيرنا فإن غيرنا فى حاجة إلينا . وهذه هى سنة الحياة وطبيعة الجنس البشرى . فهناك تفاعل متبادل بين الناس بدرجات متفاوتة ، وتعاون متواصل بشكل مباشر أو غير مباشر . وهذا يعنى أن التواصل بين الناس يعد ضرورة حياتية واجتماعية . ومن هنا كان تأكيد القرآن الكريم على أن الله قد خلق الناس مختلفين ليتعارفوا . والتعارف هو الخطوة الأولى نحو التواصل بين الناس والتعاون فيما بينهم من أجل خيرهم وسعادتهم .

وقد جعل الفيلسوف المعروف كارل ياسبرز من التواصل نقطة البدء فى فلسفته كلها سواء كان ذلك فى دائرة الفكر أو فى دائرة الواقع . وهذه الحقيقة يؤكدها الواقع

---

(١) نشر بجريدة أخبار اليوم فى ١٢/ ١/ ٢٠٠٨ .

الذى يعيشه الناس . والسؤال الذى يمكن أن يطرح نفسه فى هذا الصدد هو : كيف يتم هذا التواصل بين الناس ؟ أو : ما هى آليات التواصل ؟ .

إن الله سبحانه وتعالى عندما خلق الإنسان فى أحسن تقويم جعل من وجه الفرد نافذة يطل منها على هذا الكون ، ومن خلالها يتم التواصل عن طريق آليات عديدة منها السمع والبصر والكلام وتعبيرات الوجه وغير ذلك من وسائل . ومن خلال هذه النافذة البشرية يمكن أن يكون التأثير لدى الآخر بالإيجاب أو بالسلب . فإذا ظهر الإنسان بوجه بشوش أحدث لدى الآخر ارتياحًا نفسيًا واطمئنانًا يشعره بالتفاؤل فى إمكان التواصل ، أما إذا كان العكس فإن نتيجته هى النفور والصدود والتباعد والتشاؤم . ومن ذلك يتضح أن تعبيرات الوجه بصفة خاصة لها أثر بالغ الأهمية فى سلامة العلاقات بين الناس أو اعوجاجها .

ولأهمية الوجه وتعبيراته فى إمكان التواصل بين الناس يقول النبى عليه الصلاة والسلام : « **تبسمك فى وجه أخيك صدقة** »[1] ، والبسمة تعبر عن نفسها فى انفراج أسارير الوجه . وفى ذات المعنى يقول النبى أيضًا : « **لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق** »[2] أى بوجه بشوش . ونظرًا إلى أن لكل إنسان جانبًا باطنًا لا يراه الآخرون فإن تعاملهم يتم عن طريق الجانب الظاهر وهو الوجه وما يحمله من تعبيرات تفصح عما بداخله فى العادة . فإذا أغلقنا هذه النافذة الظاهرة المتمثلة فى الوجه وما يعبر عنه استحال التواصل بين الناس وأدى ذلك إلى إغلاق كل سبل التفاهم والتجاوب بين البشر .

لقد كانت هذه مقدمة ضرورية أردنا بها أن نمهد لما نود أن نتحدث عنه حول ظاهرة بدأت تنتشر فى المجتمع بشكل لافت للنظر تتمثل فى إغلاق نافذة التواصل بين الناس . وحديثنا فى هذا الصدد يأتى انطلاقًا من مقررات العقل السليم وتعاليم الدين الصحيح بعيدًا عن أى مزايدات أو مهاترات .وما قلناه ينطبق على الإنسان

---

(١) رواه الترمذى فى سننه .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه .

بصفة عامة سواء كان رجلاً أو امرأة ، كما ينطبق أيضًا إلى حد ما على علاقة الإنسان بالحيوان . والحديثان اللذان أشرنا إليهما لا يتعلقان بالرجال وحدهم بل يشملان النساء أيضًا . وهذا هو الشأن فى تعاليم الإسلام .

إن ظاهرة إغلاق نافذة التواصل بين الناس لدى فئة من النساء متمثلة فى إخفاء الوجه أو ما يسمى بالنقاب بدأت تنتشر بشكل ملحوظ فى كل مكان ، ووصلت إلى صفوف الممرضات فى المستشفيات والمدرسات فى المدارس والبنات فى المدارس الإعدادية ، ناهيك عن إدارات حكومية عديدة . ويحاول البعض أن يفسر هذه الظاهرة بأنها علامة على التدين والورع والتقوى ، والبعض الآخر يراها حرية شخصية لا دخل للآخرين فيها ، فلكل إنسان أن يرتدى ما يشاء من الملابس بالطريقة التى يرتضيها .

ونبادر بالقول إن هذا الأمر لا صلة له بالحرية الشخصية وإنما هو فى واقع الأمر إساءة استخدام لهذه الحرية لأنه فى حقيقته ضد الطبيعة البشرية ، وضد مصلحة المجتمع ، وذلك فضلاً عن أنه يعد إساءة بالغة للدين وتشويهًا لتعاليمه السامية .

ونود فى هذا المقام أن ننقل هنا عبارة للشيخ محمد الغزالى فى كتابه القيم : «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ». يقول رحمه الله : إن المعارضين لكشف وجه المرأة يتمسكون بأدلة واهية ، « ويتصرفون فى قضايا المرأة كلها على نحو يهز الكيان الروحى والثقافى والاجتماعى لأمة أكلها الجهل والاعوجاج لما حكمت على المرأة بالموت الأدبى والعلمى » .

ويعنى الشيخ الجليل رحمه الله أن إخفاء وجه المرأة يعد حلقة فى سلسلة متواصلة من الظلم الاجتماعى للمرأة الذى حكم عليها بالموت الأدبى والعلمى انطلاقًا من جهل بالدين وانحرافًا عن تعاليمه الصحيحة .

والحق أن هناك عادات وتقاليد بالية تريد أن تفرض نفسها على الدين ، ومن بينها إخفاء وجه المرأة تحت نقاب يلغى كيانها كإنسان . لقد أوجب الإسلام على المرأة أن تكشف وجهها فى الحج وفى الصلاة . ولا يوجد دليل واحد فى القرآن أو فى

السنة أو فى العقول السليمة يؤيد تغطية وجه المرأة . فالنقاب عادة وليس عبادة ، لأن العبادة لا تكون إلا بنص صريح . ومن المعروف أن بعض النساء فى الجاهلية ،وعلى عهد الإسلام كن يغطين أحيانًا وجوههن مع بقاء العيون دون غطاء . وقد كان هذا العمل من العادات لا من العبادات .

لقد روى لى بعض الإخوة أنه شاهد برنامجًا فى إحدى الفضائيات - التى أصبح لها جمهور كبير من المشاهدين - يتحدث فيه المتحدث عن مواصفات النقاب ، وانتهى إلى القول بأنه لا يجوز أن يظهر من نقاب المرأة بياض عينيها أو رموشها . فالمسموح به هو سواد العين فقط .

فأين ذلك من قول الله تعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾[1] ؟ .

إن غض البصر - كما يقول الشيخ الغزالى أيضًا - يكون عند مطالعة الوجوه ، فإذا كانت مغطاة فمم يغض المؤمنون أبصارهم ؟ ويتساءل الشيخ : أيغضونها عن القفا والظهر ؟ ويناقش رحمه الله من يحتجون بالآية الكريمة : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[2] ويقول : « لو كان المراد إسدال الخمار على الوجه لقال : ليضربن بخمرهن على وجوههن ، ما دامت تغطية الوجه هى شعار المجتمع الإسلامى ، ومادامت للنقاب هذه المنزلة الهائلة التى تنسب إليه . . . إن الآية ليس فيها نص على تغطية الوجوه » .

ومن المرويات فى هذا الصدد أن النبى عليه الصلاة والسلام خاطب النساء فى يوم عيد - وكان مصلى العيد يجمع الرجال والنساء - فقامت امرأة سفعاء الخدين وسألته توضيحًا لبعض ما ورد فى حديثه. فكيف عرف الراوى أنها سفعاء الخدين[3]، أى أن وجهها يجمع بين الحمرة والسمرة ، إلا إذا كان قد رأى وجهها على هذا النحو

(١) سورة النور : ٣٠.

(٢) سورة النور : ٣١.

(٣) رواه مسلم فى صحيحه.

فى مجلس حضره رسول الله ﷺ ؟ ولا نريد أن نسترسل فى ذكر الأسانيد التى وردت فى السنة النبوية التى تؤيد كشف وجه المرأة وبالتالى ترفض النقاب . فالروايات فى هذا الصدد كثيرة ومتنوعة .

وإذا كان الأمر كذلك وهو أن القرآن والسنة يرفضان تغطية وجه المرأة فإن العقول السليمة لا تجد أى مبرر معقول لهذه العادة التى تمحو شخصية المرأة ، وتسئ فى الوقت نفسه إلى صورة الإسلام الذى يحترم المرأة ويحرص على كرامتها ويصون حريتها ويضعها فى أرفع مكان .

وأعتقد أن هذه الظاهرة جديرة بدراسات جادة من جانب علماء النفس وعلماء الاجتماع والمجلس القومى للمرأة ومنظمات المجتمع المدنى المهتمة بشئون المرأة ، وذلك فضلاً عن وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية .فإن ما تنشره الصحف بين حين وآخر من إساءة استخدام النقاب من بعض النساء ، أو من بعض الرجال ينبغى أن يفتح عيوننا جيدًا ويدفعنا إلى التفكير مليًا فى هذه القضية وتداعياتها .

وندعو فى الوقت نفسه أخوتنا المنقبات - ولا شك فى أن غالبيتهن من الفضليات - أن يفكرن فى الأمر فى ضوء الموقف الصحيح للدين من هذه القضية ، وفى ضوء نور العقل - الذى هو أعظم النعم التى أنعم الله بها على الإنسان . ، وفى ضوء مصلحة المجتمع « فحيثما توجد المصلحة فثم شرع الله » ، وألا يلقين بالاً لما يقوله من لا علم لهم بالدين ، الذين « يتصرفون فى قضايا المرأة كلها على نحو يهز الكيان الروحى والثقافى والاجتماعى للأمة التى أكلها الجهل والاعوجاج عندما حكمت على المرأة بالموت الأدبى والعلمى » - كما قال الشيخ الغزالى فى النص الذى سبق أن أشرنا إليه - ، والشيخ الغزالى - كما هو معروف - من كبار أئمة المسلمين الذين لا خلاف بين الجميع على إخلاصه وورعه وعلمه وفضله .

والله يهدينا جميعًا إلى سواء السبيل ، ، ،

* * *

التواصل المعرفى بين التراث والمعاصرة[1]

لقد مرت البشرية بحقب تاريخية مختلفة لكل منها ملامحها وقسماتها ، ولكن هناك خيطًا واحدًا يجمعها هو التاريخ البشرى . ومن هنا فإن كل أمة من الأمم - وبخاصة تلك الأمم العريقة - لها تاريخ يشتمل على ماض انقضى وترك آثاره فى حاضر تعيشه ، وتخطط فى الوقت نفسه لمستقبل تتطلع إليه . والأمة التى ليس لها ماض يحمل بصمة خاصة بها ليس لها أيضًا حاضر متميز ولا مستقبل واضح المعالم .

وتاريخ كل أمة يشتمل على مجموع تجاربها وخبراتها وإنجازاتها وإحباطاتها على جميع المستويات . ولا شك فى أن صحائف التاريخ الماضى لكل أمة ليست دائمًا ناصعة البياض ولاهى أيضًا حالكة السواد . ومن هنا تحرص الأمم الواعية على أن تستفيد من تجاربها وخبراتها السابقة ، وألا تهمل تاريخها ، بل تستحضره دائمًا لاستخلاص الدروس والعبر ، لتتفادى السلبيات وتؤكد على الإيجابيات . وتستشرف آفاق المستقبل بخطى ثابتة . ويمكن القول بأن حضارة الأمة تتمثل فى مجمل إنجازاتها على الصعيدين المادى والروحى . وقد قامت الحضارة الإسلامية منذ يومها الأول على أساس من المادة والروح ، وحققت فى عصر ازدهارها إنجازات رائعة استفادت منها الشعوب الأخرى وخاصة الحضارة الأوروبية .

والماضى الحضارى للأمة هو تراثها الذى خلفه لها السابقون ، وهذا التراث هو ميراث الأمة الذى لا يجوز أن تبدده ، فهى مسئولة عنه مسئولية تامة . والأمة التى تبدد مواريثها أمة لا تستحق الحياة ومصيرها النسيان ، تمامًا مثل أى فرد يبدد الميراث الذى ورثه عن آبائه وأجداده فيكون مصيره الخزى والعار .

---

(١) نشر بصحيفة أخبار اليوم فى ١/ ٣/ ٢٠٠٨ .

والأمة الإسلامية - كما هو معلوم - أمة غنية بتراثها الحافل بالإنجازات التى حققتها فى جميع المجالات ، وكانت منفتحة فى ذلك على كل الحضارات التى سبقتها واستفادت من إنجازاتها الحضارية . وهذا الانفتاح الحضارى - أو التعرف على ما لدى الآخرين - يعد فى نظر الفيلسوف ابن رشد واجبًا شرعيًا ، ويضيف إلى ذلك قوله : « ننظر فى الذى قالوه من ذلك وما أثبتوه فى كتبهم . فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم » .

ومن ذلك يتضح أن التواصل الحضارى الذى سلكته الحضارة الإسلامية فى السابق والذى عليها أن تسلكه فى حاضرها ومستقبلها يتمثل فى بعدين أساسيين : أولهما : - التواصل مع التراث الحضارى للأمة بصفة خاصة ، وثانيهما : - التواصل مع التراث الإنسانى بصفة عامة .

فالتراث الإنسانى أخذ وعطاء ، وهو ميراث مشترك للبشرية كلها . ولا توجد أمة عريقة فى التاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من هذا التراث . والتواصل المقصود هو تواصل معرفى يقوم على الدراسة الجادة لاستخراج العناصر الدافعة إلى التقدم والارتقاء .

وإذا كنا نؤكد على ضرورة التواصل مع التراث فإن ذلك لا يعنى بأى حال من الأحوال العبودية لهذا التراث والسير على خطى السابقين بتقليد أعمى لا يميز بين الغث والسمين والجيد والردىء ، وإنما التواصل الذى نعنيه هو التواصل القائم على التفكير النقدى الذى يشق الطريق أمام الأمة مزيلاً من طريقها ما فى هذا التراث من ركام معطل لمسيرة التقدم ، ومبقيًا فقط على العوامل والمقومات الإيجابية التى كان لها الفضل فى كل ما حققته الحضارة الإسلامية من إنجازات .

إن التواصل مع التراث إذن ليس مجرد المحاكاة للسابقين فى كل أفعالهم وأقوالهم . فهذا أمر لا يجوز فى العقل أو الدين نظرًا لاختلاف الزمان والمكان ومتغيرات الحياة وتطوات العصر ، إنما المقصود - كما يرى الدكتور زكى نجيب

محمود أيضًا - هو محاكاة التراث فى الاتجاه لا فى خطوات السير ،وفى المواقف لا فى مادة المشكلات وأساليب حلها ، وفى القيم الإيجابية التى يقاس عليها ما يصح وما لا يصح ، وليس المجال الذى ندير عليه تلك القيمة المستعارة . وفى كل ذلك يمكن الحديث عن التواصل بين التراث والمعاصرة . فالتراث يكون بمثابة إطار عام يقدم المبادئ ولكنه لا يعوق الحركة أو يعطل مسيرة الأمة نحو التقدم والارتقاء .

وليس من مصلحة أمة من الأمم ، وعلى الأخص الأمة الإسلامية ، أن تضرب صفحًا عن تراثها ومواريثها الحضارية وتحدث قطيعة معها بحجة اللحاق بركب العصر . صحيح أن من حق كل أمة ، والأمة الإسلامية على وجه الخصوص ، أن تواكب تطورات العصر وألا تتخلف عن ركب التقدم على جميع المستويات . ولكن المعاصرة لا تعنى - ولا يجوز أن تعنى - اتخاذ موقف عدائى من التراث بحجة أنه ماض كانت له ظروفه التى لم تعد قائمة ، كما يقول الرافضون للتراث . فمن الوهم الاعتقاد بأن التراث مناقض تمامًا للمعاصرة أو أنه يشكل قيدًا على حركة الأمة . فالحق أنه لولا التراث ماكانت المعاصرة .

إن الفهم الصحيح للمعاصرة يعنى أنها امتداد زمنى للتراث تستمد منه مقوماتها وترتكز عليه وتضيف إليه وتبنى على قواعده الراسخة . أما المعاصرة التى تبنى قواعدها على الرمال فإنه لن يكون لها ثبات ولا استقرار .

وفى عالمنا المعاصر ظهر تيار جديد لا يستطيع أحد أن يتجاهله أو يقف فى طريقه ، هو تيار العولمة الجارف . والعولمة مثلها مثل أى ظاهرة جديدة تشتمل على إيجابيات ، كما تشتمل أيضًا على سلبيات .

ولا شك أن من الآثار السلبية للعولمة محاولة تذويب حضارات الأمم والشعوب المختلفة فى حضارة واحدة هى حضارة الأقوى . ولكن الأقوى ليس دائمًا على صواب . وإذا كانت الأمة الإسلامية قد توقف عطاؤها وتراجعت حضاريًا فى القرون الأخيرة فإن هذا التراجع الحضارى ليس قدرًا محتومًا لا يمكن تغييره ، وإنما هو مرحلة من مراحل تاريخ الأمة .

وإذا كانت هذه المرحلة قد طالت أكثر مما ينبغى فليس معنى ذلك أنه لا نهاية لها. فكل ما له بداية له نهاية . وفى غد نراه قريبًا ويراه أعداء الأمة بعيدًا سوف تكتب النهاية لهذا التراجع الحضارى بإرادة الأمة وعزيمتها وسواعد وعقول أبنائها . ومن هنا فإنه لا يجوز أن يكون هذا التراجع الحضارى المؤقت مبررًا لتخليها عن مواريثها الثقافية وهويتها الحضارية ، فارتباطها بموارثيها بمثابة ارتباط الروح بالجسد . وعليها أن تتبين مواطن الخلل فى مسيرتها لإصلاح المسار .

والمسلمون اليوم فى محاولتهم النهوض واللحاق بركب العصر فى حاجة ماسة إلى التعرف على منجزات العصر بعيون ناقدة كما فعل أسلافنا من قبل . وهذه النظرة النقدية لا يجوز أن تقتصر فقط على نقد ما لدى الآخرين وإنما تنسحب أيضًا على تراثنا . وهذا يعنى ضرورة تمكين العقل الإنسانى من أداء دوره الفاعل فى مسيرتنا الحضارية ، ومراجعة تراثنا مراجعة دقيقة بهدف وصل ما انقطع بينه وبين تطورات العصر وذلك بإزالة أسباب الجفوة المصطنعة بينها ، تلك الجفوة أو القطيعة التى يتبناها فريقان متنافران ، وكل منهما له أسبابه المختلفة تمامًا عن الفريق الآخر .

فالفريق الأول يتمسك بالتراث بإيجابياته وسلبياته ، ويغلق الباب تمامًا أمام أى شكل من أشكال المعاصرة ،ويرى أن المعاصرة ما هى إلا غطاء لمؤامرة ضد التراث ومحاولة ماكرة لمحو الخصائص الحضارية للأمة الإسلامية . ومن أجل ذلك - كما يرى هذا الفريق - يجب التشبث بالتراث وحمايته من أخطار المعاصرة التى تشكل تهديدًا حقيقيًا للتراث .

أما الفريق الثانى فعلى الرغم من تبنيه للقطيعة بين التراث والمعاصرة فإن الأسباب التى تدفعه إلى ذلك مختلفة تمامًا عما أشرنا إليه لدى الفريق الأول . فإذا كان الفريق الأول يرفض المعاصرة لحساب التراث والحفاظ عليه فإن الفريق الثانى على العكس من ذلك يرفض التراث لحساب المعاصرة ، وينبنى هذا الرفض على أساس أن التمسك بالتراث هو سبب تخلف الأمة الإسلامية وأن المعاصرة هى طوق النجاة للأمة وهى سبيلها الأوحد للتقدم والرقى .

ونعتقد أن كلا من هذين الفريقين غير محق فيما ذهب إليه من تطرف ومبالغة فى وجهة النظر التى يتبناها كل منهما . فالتراث ليس خيرًا كله وليس شرًا كله أيضًا . ومن أجل ذلك فإن علينا أن ننقى تراثنا من الشوائب التى تضر ولا تنفع ، ولا ضير علينا إذا نظرنا فى تراثنا نظرة نقدية تبقى على كل ما هو إيجابى فى التراث وتنفى عنه كل السلبيات . وعندئذ سوف نرى أن التراث نفسه يدعو إلى المعاصرة الإيجابية .

ومن ناحية أخرى فإن المعاصرة أيضًا ، وإن شئت فقل العولمة ، ليست خيرًا كلها ولا شرًا كلها . ومن هنا فإن من واجبنا أن ننظر إليها نظرة نقدية نأخذ منها ما ينفعنا ويساعدنا فى مسيرتنا .ومن حقنا أن نرفض ما لا يلائمنا وما نرى أنه سيعود علينا بآثار سلبية ، كما سبق أن أوصانا بذلك ابن رشد .

وبعد هذه النظرة النقدية فى التراث من جانب وفى العولمة من جانب آخر سنجد أن القطيعة بينهما قد سقطت وحل محلها التواصل . وأمتنا الإسلامية فى أشد الحاجة إلى هذا التواصل المبنى على الوضوح وعلى النظرة النقدية البناءة . ولن يجدى أمتنا أن تقف موقف الرافض لكل شئ .فقطار التطور يسير بسرعة مذهلة ولن نستطيع أن نعزل أنفسنا بعيدًا عما يدور فى عصرنا من متغيرات متلاحقة .

* * *

ظاهرة الزواج العرفى[1]

لقد انتشرت فى السنوات الأخيرة ظاهرة انتشار الزواج العرفى بشكل لافت للنظر ، وتغلغلت هذه الظاهرة فى أوساط كثيرة فى المجتمع ووصلت إلى دور العلم المختلفة . وقد ترتب على ذلك العديد من المشكلات والكثير من المآسى . والضحية فى جميع الأحوال هن الفتيات اللاتى يتم التغرير بهن بوعود كاذبة . وقد تركز اهتمام الكثير من الفقهاء - للأسف الشديد - بشكل العقد فى هذا الزواج ، وأفاضوا فى الحديث عن قضية اكتمال أركان العقد فيه أو عدم اكتماله ، وأباح الكثيرون منهم هذا اللون من الزواج دون نظر إلى الآثار المدمرة المترتبة عليه ، ودون مراعاة لمصلحة الأفراد بصفة خاصة ومصلحة المجتمع بصفة عامة .

ومن المعروف لكل دارس للشريعة الإسلامية أنها تضع المصلحة المشروعة - مصلحة الأفراد والمجتمع - فوق كل اعتبار . فحيثما توجد المصلحة فثم شرع الله ، كما كان يقول الإمام نجم الدين الطوفى الذى كان يعتبر المصلحة مصدرًا مستقلاً للتشريع .

وإذا كان من القواعد المقررة فى الفقه الإسلامى أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، وأنه إذا تعارضت مفسدة ومصلحة فإن دفع المفسدة يقدم على جلب المصلحة ، وأنه إذا عم البلاء - والزواج العرفى أصبح بلاء لا يجوز تجاهله - فإن من حق الحاكم أو رئيس الدولة شرعًا تقييد المباح أو حتى تحريمه درءًا للمفاسد وصيانة للمجتمع .

---

(١) نشر بجريدة الأهرام فى ٣/ ٣/ ٢٠٠٨ .

لقد كان العرف السائد قديمًا هو عدم توثيق عقود الزواج ، فلم يكن التوثيق معروفًا ولا معمولاً به ، وكان يكفى تحقق أركان العقد مع العلانية ، ولم تكن هناك مشاكل تذكر . ومع تطور الزمن وتعقد الأمور وضياع الحقوق تغيرت الأوضاع الاجتماعية ، ودعت الحاجة إلى ضرورة التوثيق لعقود الزواج والطلاق ، واستقر الأمر على ذلك منذ عشرات السنين . وأصبح التوثيق عرفًا متبعًا لا خلاف عليه . وحل هذا العرف الجديد محل العرف القديم الذى كان سائدًا وهو عدم التوثيق .

والعرف له اعتباره فى الشريعة الإسلامية . فالمعروف عرفًا كالمشروط شرطًا ، كما هى القاعدة الفقهية . ومن الأمور المقررة لدى فقهاء الأمة الثقات ضرورة مراعاة الأعراف السائدة فى كل بلد عند التصدى لإصدار فتاوى شرعية تؤثر فى حياة الناس وسلوكهم . وفى ذلك يقول الإمام القرافى : « ينبغى للمفتى إذا ورد عليه مستفت لا يعلم أنه من أهل البلد الذى منه المفتى وموضع الفتيا ألا يفتيه بما عادته أن يفتى به حتى يسأله عن بلده ، وهل حدث لهم عرف فى ذلك البلد فى هذا اللفظ اللغوى أم لا . » .

ومن المعروف أن الإمام الشافعى عندما قدم إلى مصر واستقر به المقام فيها بدأ يعيد النظر فى الآراء والفتاوى التى قال بها قبل ذلك فى بغداد ، نظرًا لما وجده من اختلاف فى الأعراف والتقاليد فى كلا القطرين .

وإذا كان من القواعد المقررة أنه « لا ضرر ولا ضرار » كما جاء فى الحديث النبوى الشريف[1] ، وإذا كان من المعروف أن الزواج العرفى كان سببًا فى ضياع حقوق أعداد كبيرة من الفتيات اللاتى يجدن أنفسهن بعد المرور بهذه التجربة المريرة لا يملكن أى دليل أو سند قانونى يحمى حقوقهن ويصون لهن كرامتهن . فإن السكوت على ذلك يعد إثمًا دينيًا واجتماعيًا وإنسانيًا .

(١) رواه ابن ماجه فى سننه ، باب الأحكام .

ومن هنا فإن الضرورة تحتم وضع حد لهذه الممارسات غير الشرعية وغير القانونية ، وحماية المجتمع من الأضرار الماحقة لهذا اللون من الزواج الذى هو فى جوهره ليس زواجًا حقيقيًا ، وإنما هو بمثابة فخ منصوب للفتيات اللاتى يرتضين الدخول فى هذه التجربة . وليس من قبيل المبالغة أن نقول إنه يعد نشرًا للفاحشة تحت غطاء دينى .

والذى أراه أن الوقت قد حان لوضع حد لهذا الزواج العرفى بأشكاله المختلفة ، وذلك بإصدار تشريع بتحريم هذا الزواج ، وإلزام كل من يريد الدخول فى علاقة زوجية بتوثيق عقد الزواج صيانة للحقوق وحماية لمصلحة الأفراد ومصلحة المجتمع .

* * *